

الأعمال
الإبداعية

مرحلتان القراءة للجميع

أوراق شباب عاش منذ ألف عام

جمال الغيطاني

www.liilas.com

florist

لبنان
الطبعة الأولى

اوراق شاپ عاش

منذ ألف عام

اوراق شاپ عاش

منذ ألف عام

أوراق شلاب عالم

مغذ ألف عام

www.lillas.com

منتديات ليلاس

جمال الفيطلاني



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الإبداعية)

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التثويرية وأهدافها
التبئية بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر
التاريخ وإثارة الفهم أمام القارئ للتواصل مع الثقافات
الأخرى لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلمنا
الحديثة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات
والمعرفة.

د. سمير سرحان

أوراق شاب عاش
منذ ألف عام
جمال الفيضاني

الغلاف

الإشراف الفني

للطاهر محمود الهنسى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة للرعاية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التثقيف الهيئة العامة للكتاب

مقدمة

• عثر على أولنا على هذه الأوراق أثناء عمليات تنقيب في المنطقة الواقعة شمال مصنع المثلثات ولم يستثن ، حيث قامت منذ ألف عام مدينة كبيرة بتحمل أن يكون اسمها « النيا » لو « أسوط » ، ويخص تلك الأوراق أحد سكان هذه المدينة . وقد كتبها أثناء الحرب التي نشبت في تلك الأعقاب للبعيدة بين أجدادنا على غفاف النيل وبين دولة صغيرة لم يصلنا غير معلومات ضئيلة عنها ، وكانت تسمى إسرائيل . لكنه من المعروف أن هذه الدولة قد اختضت ليلاً بعد ذلك وضاعت ثغورها نهائياً ، ونرى هنا مشاعر أحد أجدادنا في هذا العصر البعيد حيث يبدو أن وطنه كان يتعرض لبعض الأخطار ، كما لمس أيضاً إحساسات أبناء هذه الفترة التي بالتقصير قبل انقراض الاشتراكية في كوكب الأرض كله ، كذلك أورد هذا الشاب مخاوف من قراءاته ومن معالم العصر ، وقد دعا هذه الأوراق كما هي ، فيما عدا توضيحات بسيطة وأحيانا أن تكون في أضيق الحدود ، إننا لا نعرف تفصيلات كثيرة عن كاتب هذه الأوراق ، لكننا لا نملك إلا الإحساس بالاحترام لأحد الكتابين الأوائل للجمهوريين لنا والذين مهدوا لحضارتنا هذه .

كانت مدينتي مظلمة تماماً ، للبلل الكبيرة أتباع هائلة لا تفصح عن تفاصيلها ، كان الصمت مستكناً في الزوايا والأركان لا انفجارات ، لا صوت مدافع ، عدت أصغى إلى الراديو ، الموسيقي العسكرية ، صمت مطن مرحن منذ الظهيرة ، لمج أحد الزملاء شعلة ضوء في نافذة علوية ، عندئذ صحتنا كلنا ... طقوا التور .. طقوا التور .. هبت موجات متتابعة من الغواء ، أمام بيت فنيهم جلس رجل عجوز أصغر على السير معنا كان يؤكد أنه قد رأى أربع طائرات . لم يعرف بالضبط إن كانوا من طائراتنا أو طائراتهم . انقضوا ثم ارتفعوا حتى شك في أنه هو الهدف المصود . ابتسمت في الظلام ، عدت أصغى إلى الراديو ، صاحبت امرأة تأمر طفلها بالكسوت ، سقط وعاء نحاسي في طابق علوي ، عانت رائحة غامضة في الفراغ ، نال للبيع ..

.. وخاضت قواتنا معارك دامية فوق الأرض المصرية ..

صاح شاب لم أراه .. ما معنى ذلك ، أذرت المؤشر ، لكن الصمت حاد فاس ، عاد المذيع يكرر البيان ، إحساس غامض ، بأن ثمة أشياء هائلة تحدث ، صحيح المسافة بعيدة ، أين سيناء من مدينتي ؟ (كانت المسافة من منطقة سيناء التي كانت في هذا الوقت صحراء تماماً إلى أقصى نقطة في الواحى تعتبر بعيدة بمقاييس هذا العصر) لكني شعرت بالخطر ، ثم ما الذي يحدث لو انهار سد أسوان ؟؟

منفرد المياه أرضنا بعد ساعات ، عدت أصغى إلى الأصوات المختلفة .

- ليس من المستبعد أن يضربونا هنا ..

- إنهم كلاب عسى لا يفرقون بين شيء وشيء ..

اقترب مني أحد الجيران .. أشار إلى الراديو ..

- هذا يعني أنهم فوق لوزنا .. !!

حملت في العتمة اللزجة الكثيفة « غرس الراديو » لم يعد قادراً على إعطائي أي شيء ، ترى ما الذي يحدث ؟ ما الذي يجري ؟ أريد أن أعرف ، فليحدث ما يريد هذا الشموس الذي يخطئ ..

لكن الصمت كان قاسياً ، لمحا شعلة ضوء ، فعدنا نصبح .. طقوا التور .. طقوا التور ..

« صفحة من المذكرات »

♦ ♦ ♦

بلادي بلادي بلادي

لك حبي وفؤادي

هنا القاهرة ..

لحظة صمت ..

موسيقى عسكرية ..

مصر التي في خاطري ولي دمي ..

أحبها من كل روسي وروس ..

والإفاحة في صباح باكراً من الأيام الأولى لوزني ..

♦ ♦ ♦

انفجر جسمي ، أغنية كتيبة .. ومادية تنير في نفسي انتباهاً مؤلماً ، كل شيء في خطر ، خرجت بسرعة من حيروني الصغيرة إلى شوارع مدينتي الحقيقة ، كان الصباح صلياً جداً ، السماء براقعة جداً لكني أحسست بالسياء حواء كالدم ، غتوتة ، شيء ما يرنى .. ما هو ؟ لا أدري . ربما النهر الكبير ، ربما الناس ، الأطفال الصغار في زحامهم حول بائع حلوى أمام مدرسة ، السائقون لحقة الدوايح ، ربما محبات الفتيات في الساء ، ربما الأشجار وميسس فحشرات بين أغصانها ، هذا الجبل ، تلك الكتب . قال الراديو قوتنا تقتل في الخط الثاني ، طمحتي السؤال كحجوى الرحابة ، أين مواقع الخط ؟ لم تسخني المحارط التي لا معطل بها ، شرب مدير الكتب لهوته ، تحدث عن روميل .. (قلقت نازي هتلر في النصف الأول من القرن العشرين) . وتكلم عن « الحرب العالمية والعلمين » وتساءل أخبرنا عما إذا

كانت دور السينما تفتلق في المساء لم تفتح أبوابها ؟ .. ثم قال إنه من الممكن
للسينما أن تعمل في أيام الغارات إذا ما أحكم إغلاق البنى ، ومنع تسرب
الضوء ، فست واقفاً ومخرجت ، في العصر لم أستطع النوم ، كنت مرهقاً ..
منهاكا .. قال ساكن الطابق العلوي ..

— ضربونا الأمر مكان ..

ودت عليه امرأته البدينة ..

— صحيح يهزلوا البلاد ويفتحوا بطون الستات ؟

صاح الرجل ..

— يا وليه احنا زحنا فون .. والله يوم ما حصل الموت أحسن ؟ تصالح
أطفال في الحارة ، نظرت إلى الكتب للكومة فوق أرض الخربة ، زحف
صربار فوق الجدار ولم أحرك أصبعاً ، ترى ماذا يفعل أصحابي في القنطرة ؟
الغارات لا هدا فوفهم ، لابد أن حالهم أحسن مني ، كان من القروض أن
أنام حتى أستطيع السهر في نوبة المقاومة ، جفوني ثقيلة وذرفت الرمل تملأ عيني
لكم أنا في حاجة إلى النوم ، النوم حتى أسهر ، حتى أرى شماعات التور التي
تطلب ظلام المدينة ، لكنني كنت بسرعة ، خرجت إلى الطريق ..

« صلحة من المذكرات »

إلى أشعر ببرودة أشد من برودة الماء ..

إلى أشعر بحرارة أشد من حرارة النار ..

ورغرت جسمي في العرق بينما لغز من شدة البرد ..

هناك غشوة على عيني ولا أستطيع الرؤية ..

« شكوى الآلهة مع إلى لنفس »

• • •

تسلل الفون الرمل على القنم في حث إلى الفراغ ، غرقت البيوت القديمة
في صمت ما بعد الغروب ، أسرع المارة إلى بيوتهم ، حامت في الشارع رائحة
شبه يحترق في مكان ما ، عند ناصية حلوة خيفة رأيت زحماً ، وقفت أسمع
للصبح .. حسن أحمد الواقفون ..

— اتسحت قوتنا إلى الضفة الغربية ..

قدماً تصحى صديق أن أطمس بالثبة لأزيل أمان كان الطعم
مراً حلياً مشراً للفرح ، لكنني مضت في بطني ، جف حلقى ، لم نجم كبير في
الطرف القصي للسحاب ، بدأ الجبل خطاً باعثاً على الناصية الأخرى ، وكان النهر
يفضي حديثاً بلا تصحيح ..

« صلحة من المذكرات »

• • •

وفي هذه السنة نقص ماء النيل ، فشتت الغلال ، وزلزل الزمان في
الناس ، فكانت مصر أن تخلو من سكانها ، وكان النيل يفيض على الأرض
فلا نجد من يزرعها ..

« التاريخ القديم »

أنا الملك سنوود ابن الملك البرهشير ، بنيت هذه الأهرام في سنين حاما
عليهذهما من يشاء في مثاليته عالياً بأن المعجم أيسر من البناء ..

« التاريخ الأسطوري »

• • •

« وما تظنوه وما صليوه ، ولكن شبه لهم »

« قرآن كريم »

• • •

كنت أصبر للميدان في البلدة ، كان خطياً غلوفاً في حصر أصغر كتب ..
 زحمت حربة نخل كبيرة . فجأة .. لا أترى من أين جاء كل هذا العدد من
 الناس ، أفندية أسرعوا إلى الحربة ، امتدت الأيدي إلى حربة الطبخ ..
 خبطت الأكف على الثياب المخضراء ، تزايد الصياح ، حلفت البيوت الواقعة في
 صمت ، ولفتت عيني إلى دار السينا ..

نجاة الصغيرة تركب دراجة ، يتردها الشاب خفيف الدم حسن
 يوسف .. وقد أحاطها بدراجه .. فهاهم شاطئ للرح .. أسير ثالث بناء
 على طلب الجاهل ..

حاولت طعم الشبة المر ، الهواء ساخن ككلاء القسم ، العرق مثير ،
 لزج ، في المساء تميت أن يترى المطر ، يترى ، ثم يترى . أكلني
 الحنين .. البارحة الرطبة وأقيمت في سري لو نزل المطر سالت في الميدان
 الكبير ألقاه ، لن أجري أبداً ، لكن جهات أن يحدث هذا في أيام الصيف
 المجيدة تلك ، كانت السهات صافية تماماً ، ودأبت مدينتي الصغيرة حلة خفيفة
 مقلداً بعداً من الدنيا ، وتذكرت أرضي وقي الوق ، وجبال قاف ، والبحارة
 المسافرين في بحار بلا شيطان ، والطيور الصغيرة الضعيفة للهجرة التي لا تجد
 لهاً حنوياً تأوى إليه ، عندما انقضى النصف الأول ، من الليل فلت الساعة
 الكبيرة في جو المحطة ، حلفت إلى الطريق للمستد في جوف الليل .. من
 يدري .. ربما سقط المطر في الليلة الكبيرة ..

« صخرة من الحركات »

اللهم بقدرتك أجري لنا ، وبلغ به النفع ، اللهم أنبت لنا الزرع ، وأمر
 لنا الفروع ، اللهم لا تزعجنا بما جنته أيدينا ، اللهم دعوناك كما أمرتنا ،
 فاستجب لنا كما وعدتنا .

« من خطبة استقاء »

كان زحام الأتوبيس شديداً ، نظرت امرأة إلى رجل يحاول الالتصاق بها
 في حطو . في أقصى الميدان كانت ثلاثة الحميم تتصب رشقة تطعن الفراخ ،
 الرجال يدخلون الجوامع في عشوع منكسي الرؤس ، فوق الرصيف وقف رجل
 يلين يصيح ملوحاً بيده ..

— عندما القواء الشقي من جميع الأوجاع ، قرش صباغ واحد يا سلام ..
 عندما ..

بجوار باب الفتق جلس جزار يدين ، كصبر جداً ، قال بلجاءه
 الحلاق ..

— بيننا كل شيء لكن بالقصا تربية الفت . أي والله أهم شيء ثيلاه تربية
 الفت ..

من النافذة رأيت فتاة تحف في الشرفة المقابلة ، حلفت في لحظة . مسحت
 شعرها يديها . ضحككت ، تننى جسمها وأشارت إلى الطريق . عدت أعود
 بعيني في الحجرة وطعم الشية المر يدور في فمي ، من أسفل صااح يائع
 صحتف ..

— إلتحق يا جدد .. حرقوا أمريكا في لويتام يا جدد ..
 تمكنت فوق السرير .. راح النساء ييط رماطياً مطبضاً ، لم أتم ، ثلث ليلة
 في اللينة الكبيرة .. قلت للمستول الكبير ..

استطيع عمل أى شيء تطليونه سواء في بلدك أو هنا ... عز رأسه وقال :

- كل شيء وله وقت .. عندما نحتاجك نبحث إليك ..

وعندما عدت إلى الطريق تذكرت بلدك والطريق إليها ، خفق قلبي ، لم أع من قبل معنى وجود كلاب فوق أرض بلادى ، شيء لزج حطير أمان وجولتى ، رجال أجلاف اتحموا بينى وانضموا لعتق أمامى ، أسمعها تكلوه ولا أتحرك ، تفحص أسنان فى الأرض الصلبة ، لكن بلا فائدة (وهذا يؤكد لنا أن أجداننا قد تعرضوا لمناهب مؤلفة مع هذه اللعينة الصغيرة التى لم نعد كثيرًا) . نظرت إلى الخارج ، الليل ينزل فوق المدينة عادلاً بلا ضيق ، إن لم أصل إلى شيء الليلة سأرجع إلى بلدك ، إلى القبة الضيقة ، الفثرة على المقامى ، الحديث من النساء ، كلام زميلتى عن السبك ، التخنبة ، السطوف .

إذا قلت لن أرجع لىل أبني ؟؟

نظرت إلى الساعة ، بعد قليل أنزل ، آخر الليل فى المدينة ثم .. لا أدري .

معلقة من المذكرات

• • •

يجب أن نجد حلاً للشبان الذين لا زالوا يتسكعون على التوامى .. اتحموا لهم أبواب معسكرات المقاومة الشعبية ... (صورة مثل شياتاً يضعون أيديهم فى جيوبهم . ويجلسون على السور الحديدى أمام الأمريكين ؟) .

مجموع جرى ، الثوار فيتام .. مصرع ألف جندي أمريكي . على أندى إبراهيم يشكر صباط وجنود نقطة الناحية لمساعدتهم إياه فى ضبط جاموسه المسروقة .. ففهم الشكر .

مصرع جين مانفيلد صاحبة أضخم صدر عرفة أليها العالمية ، اتفصل رأسها عن جسمها !! ..

الأمم المتحدة تفشل فى إتخاذ قرار .

أين تقضى الشهرة هذا المساء ؟

كثرويد أقوى عيد ...

(من صفح الأيام الأخيرة من يونيو)

• • •

أمر .. أزرق .. سلطان لونها أصفر . الثلاثة المقابلة تنفى . وتطفر .. للظن مزدحم بالنفس .. قال صديقى وهو يرفع نظارته التى انزلت على أنفه ..

- لابد من الاحتكام بالنفس والتزول إليهم .. والتحدث معهم ومعايشتهم .

أكل قطعة شمل صغيرة مملحة ، شرب من كوب البيرة جردة .

- هكذا يكون العمل ولا فلا .. كنت مصر ..

صحت برهة .. سألنى فجأة !

- إلا قل لى . أخبر الثورة الثقافية انضمت هذه الأيام .. ألا تعرف ما وصلت إليه ؟

هزرت رأسى .. قمت واقفاً .. أحست بطنين فى أذن . أحد الزنابير التى تطن فوق حنظل صعيدنا قد حاذى رأسى .. عدت إلى الطريق .. الشوارع حلى بفتيات جيالات ، وشبان متألقين .. الفساتين قصيرة جداً والأرداف تخرج تحت القفاش . أمامى رجل بيع العصير وقفت عربات طويلة يشرب أصحابها أكواب للتقوى والقراولة .. تزايد ظمأى .. لكننى مضيت .. هل أبعد ؟ أم أظل ماشياً بلا نهاية ؟ أم أذهب إلى الفندق وأنام ثم لا أصحو إلا بعد ألف عام .. أعود إلى الشوارع طويلة اللحبة .. فتر

الأخافر .. زائع العينين .. تحملن العيون في مستكرة .. عند الأيدي
تتخصص .. البنايات غريبة لا تتسع لي .. الطعام ليس كما تعودته .. حتى للآه
أجد فيه طعم الشية .. المر .. أشمر بوحدة .. بخوف .. أغنى لو
تقلعت .. لو تلاثت فأعود من حيث جئت ..

أشعلت سيجارة .. نقلت رائحة الدخان إلى أنفي .. كنت الأضواء
تغلط ببعضها في نهاية الطريق ، نمت في هذه اللحظة لو أن من صديقة ،
حارة ، رقيقة ، صورتها غادي ، عميق ، تومي ، يلمن صغيرة ، حلوة ، يدوي
حينها الحلوتين برين بحث الدلمية في نفسي .. أتكلم وتكلم وأسمع ..
أتكلم وتعضي ، أشعلت نقاً عميقاً .. وجدت لي حجرة الفتق بسريرها
الحديدى الأسود الضخم مقبرة عائلة ضخمة يرح فيها ذاكولا ، بمعلق إلى
الباب في إنتظارى .. يلعب نايبه ، ينظر منها الدم .. لمت أصواء السينا ،
لأمل المطرب على شاشة التلفزيون .. لم أسمع ما قاله .. مشيت متعبلاً ..
فالت امرأة لرجل عجوز .. « هو فاكه الفلوس التي يسيها لي تكلى .. والله
بانتلف على المشرة صالح عشرة ثاين علشان أغنى الميال حش حاك
بس .. قل له ييجى أنا تبعك اا الحبل ثقيل عليه ومش قادره أشبه
لوحدى .. »

« صليحة من مذكرات »

• • •

لومت ع السرور ابوا احركوا الجسد

ونظوروا رمادى ع البيوت

شوية ليوت البلد ..

وشوية ترموهم عل (ثاينس) ،

وشوية حظوهم في إيد ولد

ولد أكون بته ولا اعرفوش

(شمر على .. حبيب)

قلت لصديقى الذي التقت به قرب الفتق ..

.. وهكذا أنا حائر .. لا أعرف هل أرجع أم أبني ..

حلق في .. أستاذ كروب المصير الفلرخ إلى ترابيزة الرخام

.. إسمع .. مازن سافر إلى الاسماعيليه ،

.. من مازن ؟

.. لى واحد .. أنا نويت .. الجو هناك منعج فيه ما نبحث عنه ..

بقلت شفى بلسان .. ووضعت يدي على كتف صاحبي ، عيناه للمعان

لمعاناً غريباً ، سألني بكثيرين مثله .. بالتأكيد ستجيء ليلى مشحونة بما أنا في

حاجة إليه .. قلت ..

.. تلغى فدا ..

.. عات معك بطانية ووزمية ماء ..

.. إلى اللقاء ..

لن أعود إلى الحجرة المنيعة .. إلى الفتاة التي تلوح يدها .. سأعود في

الطرفات حتى يسحب الليل نفسه .. وتتسلط فترات النهار في الفراخ ، ثم

لرجل ..

المقتبس من عودة ابن إياس إلى زماننا

لو بحثت فالدنيا خير الدنيا وثلاثية ليست بالثينة . حتى الناس خلاف
الناس . لا أهل لغتهم ، لا كبير أو صغير . عظيم أو صغير من أبله إلى
أجهل مصيرها ولم أحرف مايفصلني عنها شهر أو سنتين . وعندما بحث
أصحاب الرقيم عن نومهم لنسألوها ليا بهم ، قال قائل منهم .
كم لبستم ؟

قالوا لبنا يوماً أو بعض يوم . قالوا ربكم أعلم بما لبستم .
لكنني لم أحرف كم مضى هل ولم أحرف لم جئت ؟ غير أن قلت لو انقست
وراء البعثة والغربة ، لو غفلت من الرحبة والقرسي الخوف ، لمضت في
هذا الزمان الذي لمحرك وطرد به الجلاء . فلا رقب وأمنع ما يدور حولي من
عجائب وخرائب . ولقد ثورأها واحد من أهل زماننا لنشف جلفه ومات رجا
وراح هل نفعه .



المقتبس الأول من اليوم الأول

تعاظم الزحام في الطريق حتى خلته يوم الحشر . . . كنت أتمتر في شقي .
وحصدني الكثيرون حتى أن عملي كانت أن تنخلع . وكان الليل يرحل فما زال
الليل يل الليل . وكانت الأصوات عالية . رجال يرحقون وصية يتصايحون
ونساء يتهاشن ويتفلمزون . . . وكنت لو أقصد في مكان بعيد لأقرب كل هذا .
غير أني لا أعرف الطريق . وكنت تعباً لقد بلغت في زمان الأول سبعا وسبعين
سنة ، لكنني لم أستطع إلا المشي . إلا أن المرأة يتدفقون كبحر النيل في حتم
تعاظم فيه الملهضان واشتد . فجاء جليبي رجل من خراسي فكففت أنكفي . حل
وجليبي .

— لو نسبح . . . امش فوق الرصيف .

ما الذي جرى للناس فجأة . . . لم أعرف ما حدث . في حرمين الطريق وقف
شباب ينظمون الرايح والنجاي . وقرأت في الوجوه أن شيئا عظيما يقع . وكان
الليل قد نزل جامدا كالخديد . خفض الأصوات فجأة فترتعت قلبي . تبعت
من بعيد أصواتا مكتومة عاقلة كان السها لقع فوق بعضها . لمحت الهوى
رجلا مهولا . كانت ضلوعي تنخلع من الخوف . قال رجل

المضرب جامد ناحية الصابية .

رد آخر . . أولعنا لهم طائرتين .

لم أوهم غير أن ما قالاه أصعبته . هناك خطر وكانت الرجل قد خفت من
الطريق . فاستندت إلى جدار قديم . وكنت لو ألقى أمرائي رجائي . فويحي
فانم كما هو .

انقطع الصوت لمزل جلوه كانه السوف لحظة قطع رأس طفل صغيرة فوق
باب زويلة . كانه البلدة أيام توقف النيل من الزيادة . كانه . والله . وجوه
العوام البشة لحظة طواف اللعدي مطنا عن مكوس جديدة من قبل
السلطان . فجأة . . قرعت السها وصحت أصوات غرية . ضحك رجل
وقال : ولا يحبك . سأل شاب في مكان قريب . كله تمام لا وأصحت متصجبا
وكان الليل قد أوغل حتى آخر عظمي .

(متاعى قلعة الجبل بفرع طلبته . يتوجه بالثناء إلى أهل المدينة
لعالي القاهرة . . .

سيخرج للملك العظيم سيف الدين قطز .

بعد أيام قليلة للجماعة الكفار .

ونصرة الدين . . .

فجند التار يمدوة الديار . وهم خربوا بغداد وقتلوا خليفة المسلمين

ولشاحوا ناعما .

ومزقوا ألبكاوها ولأطرو بأطفالها .

جند التار يمدون الأهل والديار .

لدهوا لملك العظيم سيف الدين بالنصرة حل عند الله وحنوكم .

• • •

يا أعراب البادية . يا نسل الصحابة والمجاهدين .

لوقفوا غاراتكم على قوائم السفر . تصالحوا فيما بينكم .

أخرجوا بدأ واحدة للجهاد .

واعتصروا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا .

• • •

يا اثنين مرجوش وولاق والبروع .

يا زينة أهل المدينة .

يا أشجع رجالات .

الجهاد . . . الجهاد .

وما انصر إلا من عند الله .

• • •

المقتبس الثاني من يوم لا يعرف موقعه بالضبط من أيام العونة :

المفروض أن يكون النيل على أشده في الزيادة ، فالبحر حار والتراب يطعم
من الأرض وينزل من السماء مملاً القرواع . وعندما يتكاثف الزحام يصبح المشي
والوقوف شيئاً لا يطلق ، سرت في طريق هادئ من إليه قلبي . ورجعت
أنتفج على البنايات المحيطة بي . فجأة سمعت حس رجل ورائي فالتفت .
شاب يقارب عمري وقت أن جاء السلطان قايتباي إلى بلخ . كنت يومئذ في
العشرين . أول العمر وفرحته . حاذق في مشي . وجهه نجلى . ينأط
كثباً . في عنقه حزن كبير كما لو مات له قريب . لم يرد على السلام . قال :

.. إنها هنا .

— من ٢٢

— سعاد ١

توقفنا تحت شجرة ضخمة لا مثل لها في هذا الطريق . كان فرعيان
يملكني . استعذت بالظل . حررت في أمور هذا الزمان . يا بني من أي عصر
أنت ؟ ومن أي زمان حتى استريح وأحرف بدائي من متلهي . ألا يكفى نظن
الجهاد وطيران الحديد . فأي سعاد هذه يا ولدي ؟

— إنها تعيش في كل فطرة دم في عروفي . من خلالها أرى الدنيا كلها
بحلوها ومرها . لا أنام إلا على صورة وجهها . خضرة عينها وما تمنحني من
أمان ، سعاد . شجرها وهذه الزودة الصغيرة التي تتوسط مقدمة رأسها كلها
علامة تهدي المسافرين التائهين .

— أحبها حتى التناخ يا سيدي ومع ذلك لا ألقاها . . لا ألقاها .

لتقلت لحبي يا صاحبي . كنت أروي مبتعداً فيه ترفان . . حتى خلت قد

المقل والصواب . لم أن هذا حب ذلك الزمان ؟

— كيف يا ولدي . . أليس امرأتك ولم عيالك ؟

— لطرق براسه . اخزن الرقيق بشع من هيته . . أشقت عليه ؟

له حاوره . . لكنني لا أعرف ما يحبه . . لا أعرف . .

— إنها لا تعرف أنني أحبها . إن كياني يلوب من أجفها .

صحت . . كيف ! رغبت في سماع جوابه . . وكان الليل حولنا خامضاً

كبحر العين . كأنه لمحمة لأول مرة ولم أر مثله في العصر الثاني . . زهق شيء

ما في مكان بعيد .

— لن تعرف كما لا تعرف هي . كم أحبها ! كم عانيت من أجفها !

هذه الليالي الطويلة التي وقفت أمام نافذتها . ربما رأيت خيالها يلوح من

وواء الستارة . . ربما ابتعدت تتناول شيئاً من فوق النافذة ، ربما أسمعلتني

فخرجت نطلي إلى الطريق . في أكثر من ليلة جرحول عسكري الدائرية . وفي

ليلة أخرى أمسكني رجل . كان يصرخي ، لها الذي يجعل شاباً يتقف تحت

بيت . أنه لو رأيته يوم أن قبلتها ، في الصباح لم يكن في الطريق مواناً . قلت

لنضي فلاكلها ، فلاحظ لها لفظاً واحداً ، ورجعت أقرب منها وأقرب ،

وعندما نظرت إليها إلتفت حينئذ حينئذ . ساعها كثلث لسان أظنان

الحديد . قيدت حركات آلاف الفبر . توقفت لحظة كأنها تنتظر ودق قلبي

وحبط حل ثقيل في داخل ولم أقل كلمة فمضت . وعندما اختفت فبرمت

وجهي يدي . لطمتي ببرت الطريق في السكة القاسية التي لا ترحم .

حررت ولم أدر ما أقول . غير أنني خفت عليه . نصليت عروقه كأن المسكين

لم يحدث شخصاً إلاي ، وحدث لو أرى محلاً هذه م كنت لشدة كلامه وقوة

حبته قد أحسست بوجودها . لكن أين ؟

— إنعقب واطلبها من أبها .

— لا أقدر . . لزواج هذه الأيام صعب يا سيدي ، كما أن أيها رجل فاس

لا يرحم ولو انعبر بما أشعر به لكنني وأثقل جسدي والفتال في النيل .

— منذ متى وأنت في هذا المذاب ؟

.. لا أعرف .. كانت سعاد تسكن شوارعنا ، كنت صغيرة كزهر
السنون ، فما حين لما تحلق وجسمي ، فجأة انتقلت عائلتها إلى شارع غير
الشارع ، عبر أن حبها علق في قلبي ، رحت أراقبها في كل مكان .. لا أروح
لها ولا تحس بي .. وما أنا أروح وأجبي في الطريق الذي تسكن في بيت من
بيوت .. ربما رأيتها ..

.. والله لا أعرف ما أقوله يا ولدي ..

إنطلق من قدامي وعندما دوت لم المصه ، كان الطريق ساكناً وبه وحشة ..
نابت مشيق وأنا من المصهنة في أمر عظيم .. أي شيء هذا الذي يجب ..

أهي قوة الجبن الخفية ، يخشى جبه طوال السنين .. لو أن ما يشعر به شيء ..
ملحوس لفهم وعرفت ، لو أنني رأيت سعاداً ، عاودت الشعور بوجودها ..
كأنها تظل حل من الليل كله بأشجاره وأظلمه ونيله وحق وطاوطه وخيلته ..
حوت فيها داخل على لجة وصرت مخلوقاً بالنعشة والرقعة .. لميت لو أجد
هذا الشاب أمامي ..

.. انتهى فلكه ..

ملفتهم من ليلة كان الزحام فيها شديداً والشتاء لا زال بهيماً ..

منذ أن فلبت بوابة زويلة وكان وجدت جزءاً من نفسي .. أو عضواً كان
مفقوداً من لحمي وعظمي .. لم أزد رأياً مطروحة تتلبد من أو اجسداً محروقة لو
موسطة معلقة به .. أما الميزتان غنفس الوقفة لم تنغير .. حاروت ملول المرواح
والبحر .. كان أستظل به وأدثر روحي بأصجاره .. كانت فاعروق تبدأ من هنا
وتنتهي عند بوابة النصر .. زحقي بالغ جوافة .. ضرب مكافؤ عار ..
وأمام دكان صغير اسطر صندوق صغير يطلق الأصوات وما ترمقه آلات
الطرب والغناء .. قلت لنفسي فلا سمح بعض مناطق به الجديد .. اجبت
أنفام حافة .. اقرب البعض .. صوت رجل غليظ يقول إن المدحج نيزاته
صباح اليوم ، هز الواقفون وحسهم .. ثم قال إن محمداً جرى في الجنوب وإن
الفلداتيين اقتحموا مدينة عدن .. وأن الانجليز مات منهم ستون .. لم أعرف إلى

أي جنس ينتمي هؤلاء ، لكن إحساساً حقياً حس لي ، لابد أنهم يتمنون إلى
الافرنج الذين عبثوا طويلاً بشواطئ مصر زمن الأشرف نصوة النوري ، إلا
أنه لو مل من التجار البحرية ما قطع دابوهم من البحر لافرنج كله .. سكنت
الصوت لحظة ، أذان الجميع مصعبه ، كأنهم يتظنون لمرأ عظيماً أو شيئاً عظيماً
عنهم .. ثم قال إلا شخصاً من زعماء الفرنج قابل زعيماً آخر وأصدر بياناً وقال
إن مائة رجل من الفيتانية هاجروا تلقاً من صكر الأمر وكان وأبناوهم من
آخرهم ، ظلمت الطائرات وضربت البهت بشابل الحريق وقتلت أولاداً
صغاراً ومات كثيرون ..

وعجبت ! كيف مائة أن يقتلوا ألفاً ، وزماننا .. قالوا إن الكثرة طلبت
الشجاعة .. لكن الأمور انقلب ل هذا العصر وتغير الحال ، وقف رجل بحمل
لوق رأسه قصفاً كبيراً مليئاً بالخير يستد يد واحدة ويركب عجلة تمشي في
توازن عجيب .. وعاد الصنفون يكررو ما بدأ به .. مثبت منعها وكان الليل
يتزل أسود مختافاً يسيل كالقار .. أه لو أكلم واحداً وأحكي له هي .. كيف
وجدت نفسي في مصر غير مصري وزمان غير زمان .. ألفنا لسره بنحى أو
خسر حظي ؟ لكنني لو قلت ذلك لرجل أو امرأة لما عرفت ما سيفعلونه ،
وكان مستحلاً أن أعثر على واحد من أماني ، لعنت ألف مرة الذين قتلوا أن
يعيشوا ألف عام .. أحسست أنني ثلاثيت في أي لحظة ، كنت نعباً مرهفاً
العضش بملكني ، مثبت بجوارى بنت عيلة ليس لباساً بصيراً كشف من
وكبتها .. وكانت عز مؤخرها عزاً محكماً لي ، لو أعود شاباً امتنعت بالله ،
ما الذي جرى للناس .. ربما هذا من علامات الساعة ، فجأة توقف أمامي
رجل صبور حل رأسه طوطو الخضر .. مفوس الظهر حتى يكاد أن يلمس
الأرض بوجهه يرفع سيفاً خشبياً ، صاح بصوت غليظ وريشه يسيل ..

.. وحد الله يا رجل ..

.. لا إله إلا هو ..

.. أنا جالس الحين الشهيد .. هل تقصده بسوء أنا أعرفك ..

لرعت .. انكثرت لحقي ..

ملعت يدي بأصابع أصابعي ..

— رحم الله سيد الشهداء وزينة شباب أهل الجنة .

حسن ، أينعد أنا أعرفك . مضى مهتماً ولم انوك قوله . وصلت إلى الشارع الكبير ، ملت إلى قهوة صغيرة أمامها عمال يزحفون وامرأة تجري أمام رجل صاوخة ، الرجال سائين من غير مصروف يرضى حين ده يامسكين ، حولي كثيرون يحملون إلى صورة امرأة . . تعودت هذه الملاحظة ، وكانت المرة الأولى حلوة بيضاء تسال الثانية الرقيقة كالبرص .

— وصلتنا رسائل كثيرة بامداد ، كلها تلاحظ أن غيبك الأخيرة جديدة خالص .

رغبت حاجيها وفالت ، إنها تحرم على تغير لباسها دائماً ، ثم قالت : مارأيك في تسريحة شعري ، ألم تصلك ملاحظات عليها ؟

فالت المرأة البيضاء : جنان . . جنان . . جنان . .
وتتابع الحديث وظهرت امرأة تشقلب ورجل يفتح فمه ويقلقه ويهزج بعينه ، وجاءت شابة ورجل سمين يكرش طويل وبعض الفلاحين وكانوا يقولون كلاماً لا أنهم ، خير أن البت الشابة تفتح فمها وتقلق فالتة : لازم نأخذوا حطولكم . . لازم ، وكان الرجل البدين يزحف فيها — لا انتي بيتي ولا أعرفك — والفلاحون يصرعون والمركبات تطلق أصواتاً مزعجة وكثافس يزحفون في ركن القهوة — فيه زنته في اليك ١١ — والبنت تصر على أن يأخذوا حقوقهم . طاف رجل ينادي على بضاعت ، وأطلت امرأة تسال وتشتي وتخلع وترقص حاجيها ، تنمض عينيها وتقول :

— الوله جه ونده عليه أنا قلت لا — وهذا الشاب يطل علينا مكرواً حديثه عن النيران والفرنج والقتيل والمني رأسى وضربى مشاهل على ظهرى بسيفه حتى تكسر . . ومشت في إلجاء الجامع الأزهر حيث بعض راحتي ووليت المرأة . . الشاب النحيل . أه لو أبعد . . يكلمني عن سعد . هل كلمها ؟ حتى الشارع الذي قابله فيه ضللت الطريق إليه . . أه لو أرجع إلى رمي هذه الملحظة . . انتي غريب حتى عظمى . . تقطع قلبى . . الحشفة حولي كهوله بللة يا الولاء . . أه . . لو حدثت في زمان غير الزمان .

بدأ الجامع الأزهر . . جلس أمامه فقيه أعشى يمز جسمه ويتأوه بصوت مسروح هذا إلى كليتي

، فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها : قال انخرقتها لتغرق أعلاها لقد حنت شيئاً إمرأ . قال ألم أقل لك ، إنك لن تستطيع معي صبراً . انتهى ذلك .

وهذه نبذة فيها عجائب وموعظة للمؤمنين :

، وإذا تقوم القيامة . . وصطف الخلق صفواً طول المصف مسيرة أربعين ألف سنة ولا يعرف الواقف أباه ولا أخاه ويشرح العرق ويأخذهم على فمهم من يأخذ إلى عنه . ومنهم من يعوم فيه عوماً . ويطول الخوف ويشد الكرب . فيقولون انظفروا بنا إلى آدم فسأله أن يشفع فيها فيأثونه فيقول : مال وللشفاعة . . ويذكر فيه . . فيأثون نوحاً فيقول كيف لي بالشفاعة وقد أهلك الله بدعوى كل من في الأرض . فيأثون إلى الخليل صلوات الله عليه ويذكرون له الخلل فيقول مال وللشفاعة وقد نزلت نفاً . فيجيئون إلى حمص ابن البئر فيقول إلى أدلكم على صاحب الشفاعة الكبرى انظفروا إلى أبي القاسم بن عبد الله خاتم المرسلين . وإذا يشكون إليه حالهم يركب النبي عليه الصلاة والسلام فيأتي العرش ويخر ساجداً فينادي يا محمد ليس هذا يوم المسجود قبل تعط واشفع تشفع . فيقول يا رب عرابي العباد إلى الحساب بعد أن تشتد الكرب . فيجلب إلى ذلك وينادي . وهزن وجلالي لا يحاور اليوم ظلم ظالم ولا جور جائز . ولاقص من الشاة الغراء إذا تطعت الشاة المحفاه . ولأسألن الموت لم حش الموت ولا يفتلن أحد الشار أو ابنته وإلى قلبه مظلمة . قال كعب الأحبار لو وجد من عمل مثل عمل سبعين نبياً لمشي في تلك اليوم .

لحظات شديدة الحزن تخللت أحد أيام العودة :

الزحام على أشده والحالات تعظم ببعضها ، البساتين يتحللن وينظرون نظراتهن الجائبة ، ياتح بسومة يجتبط حافة صبية بكين صغيرة رجال المستهم تخرج من أفواههم ، خرجوا جملة من زقاق بيتي وهم مكدون برجل حلق الشعر وقبع العنق جاسط العينين ، يضربونه على عنقه ويصرخون ، الحرامى .. الحرامى .. لحت شاماً صغيراً يرمى الناس كأنه يبحث عن شيء ، إقترب منى .

نصود يا سيدنا الشيخ إن أن حرج ولم يرجع حتى الآن ! تدافع الناس حولنا وكانت أيام زيادة النيل ولي والصيف يموت وعينا الشاف غير مستقرتين . ترى أين راح أبوك يا بى ؟

— سافر إلى البلدة ليحضر نفوساً ، مرتبه لا يكفيه وإخوان يعلمهم أن لنا أنا فاعمل لأساعد ، ومع ذلك نفروشنا قليلة ، دائماً نطلبه نفود ، ليس نطلبه ، إخوان يطالبونه ، ما أعطيه له لا يكفينا ، أن صبور يا سيدنا الشيخ وطيب جداً ، لم يعرف السهر ، لم يأكل اللوز القشتر ، لو تضرع يا سيدنا سيحونه إلينا ولو يوماً واحداً من هذه الأيام البعيدة ، عندما كنا صغولاً عندما يدخل علينا بطعام العشاء ، لو يرجع هذا اليوم الذى قطع فيه مصاريف أنسى كاد سعيداً ... كاد يطير من الفرحة لأنه دفع المصاريف ، لأنهم لم يطردوا أخى .

كان ما قاله خامس ، غير أن أحسنت ما فناء ، أنا لا أرغب فى عرفة يوم بل أتمنى عصرى لأستريح ، أرى أخى يوسف الزردكاش وصهرى ترفيق المصارف . أنا لا أعرف كم من الوقت مضى على .. أحياتاً يجمل لى أنى قضيت ألف عام أسمع وأشم وأرى ومرة أغوص فى عمق حقيقى بعيد ولا أعرف حقيقة حالى وأكاد أروح على نفسى . أه من بعد الزمن الذى لا أفهمه ..

— فى الأيام الأخيرة كنا نتشاجر ، أخيراً يا سيدنا — ترك أبى البيت هذه عرفت . عندما غابته عائلاً على وجهه فوق كوبرى الجلمعة . نظرت إلى عينيه المعجوزتين .. دق قلبي مرعباً .. أحسنت به لكم هو عجوز ياتحناء كفيه ... ثم فوق الأرض لكنه لم يشأ ذلك لوأحد منا وما نحن نحتاجه .. تنب فى طرف ..

شق الطريق رجل ملون الوجه بالصبغة .. خلفه عيال يحملون خشبة عليها رسم رجل بخصن امرأة .. يوزع ورقاً صغيراً ، — هل تسمعنى يا عم الشيخ ؟

قلت برئاء .. وأنا لا أعرف إن كان النهار يتقدم أم يرجع فأرى الشمس تطلع مرة ثانية . بل أتنبى لرى والدك لأمسى ، قال لو ألف الدنيا : أحكى للناس عن أبى ، لقد شعرت بحدى جرمى يا سيدى ، باني حطير بأبى حصرصار عندما رأيت حالة أبى .. كان جالساً لم يأكل ، أعطته وأكلت معه وحلنا إلى البيت . لكن لم يمر يومان حتى تشاجر مع أبى .. سافر إلى بلدنا لى آخر الصعيد ، بيع نخلات ملكها ، ويرجع ليسان ما عليه من ديون .

نسمة هواء ، من أبى خريف حريه جئت ؟ ما هذه السنة التى لا أعرف لها خلاص من شهر .. عينا الشب قتل ، بدموع غزيرة كالنيل إذا تراحم ماؤه وراه سد الخليج قبل قسمة ..

قال إنه سيحب يومان لكن مضى شهر ولم يرجع .
— سافر يا بى .

— وما وجدته لا أستطيع أن أخلصوى من شغل .

كانه يقول لنزاً ، تصاعظ الزحام من حولنا حتى كاد أن يجرنا ، قلت له أرسل مكنوياً ، فقال إنه لا يعرف أحداً من أهل البلدة ، فنزل خروج أبه منها ملشياً على قدميه ثلاثين علماً ، وأبنائه لا يعرفون واحداً منهم .. خبطت كفاً بكف ، وحرث فيما تقول !

— ولن يعرف أحد أبداً ، أه يا أي ، كنت أحبك ولم أشعرك إلا بعد صياحك . لو أراك لحظة واحدة ، ويستهي كل شيء موجود . حياتنا لم نعطها الفرصة لنقول الكلمة الحلوة لبعضنا ، سأقتفي العمر باحثاً عنك

طبيبتي يبدى على كتفه ومر الناس من حولنا مسرعين وكأنه الوجود فيه صفرة وخفة وكان الصيف جاء بكل ثقله في لحظة

— وبما جاء باولئى ،

قال ربما قتلوه باميدنا ، ربما وجدوا في شخصه القليل ما يبد دين دم على عائلته لعائلة أخرى .

— لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، يمتنى لقاء أبيه ولا يفناه ، لماذا لم تقل له ما ترغب ، هل متجده ومن بعضي إليك في هذا الزحام ، حلق إلى طويلاً وانطلق نجاهة درت برأسي فلم ألقه ، والله لو استمر يوقف هؤلاء الناس واحداً بعد الآخر فلن يحس به أحد ، الزحام وتتابع الوجوه يأككل ما عظم وما صغر ، اشتدت الحيرة به ، وانطلقت في نفس جرة من حجرة أو أحكى لواحد من الناس ، علا التراب وترنحت النساء وطالمت في الحيون شيئاً كأنه موجه لي ، يقول في صمتي : إخرس ؟! أم تقل إنك لن تستطيع من صبراً .

— انتهى فلك ،

• • •

لحظة واحدة ثم ير بعدها الشيخ المعجوز الذي اعتاد التجول في طرقات المدينة .

وأمام الناس كلهم امتنقتى دمرئة وكانت غسك في يده قفراً ، في يده أوراق ، واستعدت بالله وسحبت عليها — كيف تكلمين رجلاً لا تعرفه

— يعني معرفة وأهلك . قل لي اسمك واسمك ما لمحيى به . هياي حمتان .. البرد جاء كما أن صدوي يضيق وتنزل عليه كتمة . والله لا أعرف ما ترفعون . النبط في حينها لكن الضيق والحيرة يتغلان نفسي ، ترى لي أي جبل من النساء تتبين . أحبطني أنك من سلاطة حوله .. وفي أي الأهل تمن ؟

ليس لك رأي في رجوع الكرة لو علم رجوعها ؟

زمت لهما ، ثبتت نظراتها حل ، حلق فينا شاب عز رأس ثم مهن . . للجنوب حلقى سيد الشهداء يمشى متحياً رافعاً سيفه ، فجاءا الفرجت لسورهما :

— أه .. أنت ضد الكرة لأنك شيخ .. يعني أكثر معرفة وأهلك .. ما اسمك ؟

قلت متهملاً .. والبرد ينفذ إلى عظامي ، حتى الشتاء ليس بالشتاء . — محمد أحمد بن ليلس ..
تحرك ففهمنا طرق الورقة .. نظرت إلى بدعته .
— ألم تسمع عن الأهل ؟
— أهرف شيئاً من هذا ؟

منه ربما حسنة عام .. حلفت لي .. قلت لا تتسجي .. فانا لا أعرف ما تقوليه . ضجعت حينها وقالت : ما اسمك . ؟ أعدت عليها ففكرت حاجبها .

— اني أمرك ؟

وكان الليل قد رمى نفسه حولنا .. تغبر لون وجوها ، كأنها غير التي كانت تنفأ ليلس ، وكان لسان ثقبلاً ورأس مدفون ، كأنهم مجردون على شعور ضيقة .
سألتني :

— ما الذي أتى بك إلينا ؟

قلت : لا أعرف وقلت لها أتكفأ توقين الرجال وتكلمهم عما يفهمونه
ولا يفهمونه .. قالت : هذا عيشي . عادة تسألني : لم جئت ؟ غير أنني لم
أرد .. وتابعت مسيري . حينئذ في نفسي إليها غير أن ابتعدت . ارتعشت
أسنان وكان الطريق قد نزلت عليه خلة وظلمة ، ثلاثي كل ثمر لصوت
الصناديق . وينظر للركبات المتدفقة لتدحسني . غنيت إلا أوجع . أن أظل
أبتعد . لكن نفسي اشتاقت إلى الناس . لكن مع من أتكلم .. ؟ كيف أفهم
أموهم ؟ إلى أي المصون والأجبال يتصمون ، نظرت وولت كأنني أغوص في
بئر القلعة السحيق . ومن خلال الظلام خيل لي أنني سمعت صوتاً له صدى
حقيق ، وتذكرت الفقيه الأعشى المجوز الجالس فوق الرصيف . وكان ينلو
بلا ملل : « هذا غرق بيبي وبيتك » هذا غرق بيبي وبيتك « وكنت من التعب
في حال غلغلة عيني .

أيام الرعب

الاسم بالكامل : عروس فنان سلامة .

تاريخ الميلاد : ١٩٤٥/٥/٩ .

الديانة : مسلم .

الوظيفة : رسام بالوزارة العامة .

عمل الإقامة : الجبلية ، كفر الطاهون .

رقم البطاقة : ٨١٦٦ .

فصيلة الدم :

أبعدت عنه البطاقة في يوم ١٨/١١/٦٨ .

• • •

... حارة الطولوط ، البلاط المصالح ، الجنودان الرمادية المتضخمة
بالرمولة ، امرأة حبيزة ترمش بعينها .. بنت لثني متكئة تحمل حقيبتها
المتكة بالكتب المدرسية .. إتاحة خفيفة « عيناها جريئتان .. فشر نصيب
ملقى عند زاوية الحفرة .

إثنت وراعه بسرعة ..

للمحرق الضيق غلال .. لا أحد ..

صوت تلاطم صغار من داخل للدرسة ، يتركون في صوت واحد ..

رجل ..

صوت رفيع لطالب صغير ..

امرأة ..

مصلحة الخدمة والمؤن ..

بالحة الفجل أمام دكان عم محمود السيك ، عند باب الحارة أطلت
خطواته .. جامع سيدي مرزوق مفلح .. لن ينظر وراعه قضبان نافذة
الضريح حديدية سمراء بلرقة كأنوار المحيط به .. أخفض حنيه .. بسم الله
الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، مالك يوم الدين ...

صبي صغير يخرج طوقاً حديدياً ، يفتح كرنب ، رجل يركض جليها
صوتها لدمياً ، فتك سمراء تغير الطريق على مهل ، لم تكف عنه عند ودليها ،
عسى شفيه .

متزل ولم .. انتخبوا ... فريق النصر المحمي يندى التواكيش ،
سينا التواكيب ، هذا المساء .. إعلان قديم تاكل ورقه .. مربع ولم ١٢٦٥
فرن الحاج نصيف ..

ليل أن يدخل للدرسة في الدور الأول ، قبل أن يفتح الباب قبل أن يخرج
المفتاح ، أطل من باب البيت القديم ، والحة غسل يا عسى يا حلو قري ،
هل رأى يفتح الخس من قبل ؟ هل صادفه في الحارة ؟ نعم .. نعم .
بالتأكيد . والحة يصل يمل في زيت .. أم سيد الحارة تشر خصيلها ، تومي .
برأسها لست حطيات ... الشرفات مظلمة متعبة .. وحدة العصر الشتوية
وجو رمضان التهادي يلف الحارة .. صاحت أم يوسف ... يا بيت .

لا أحد ..

تعد بثيابه كاملة فوق السرير .. كان الباب له وأمس وفزاحان وهينان
تريقته .. قام واقفاً ليتأكد من إخلاقه مرة أخرى .. رائحة الرطوبة في
أنفه .. الخلفة الوحيدة مغلقة ... لن يقف وراعه أحد سيلفت أنظار
الناس . لكن ! عندما يحى الليل .. عسى شفت . مد يده داخل
الجاكيت .. لكم يبدو مطرور الخطاب الذي لم يصله إلا الأسس متأكلاً .

• • •

ولدتا الغزال محروس نياض ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . بعد السؤال من صحتكم نعرفكم
بأنا طيور لا يتحصن سوى رزايكم ...

أما بعد ...

فما كنا نحب إزعاجكم ، لكنك ولدنا ونخالف عليك كما نخالف هل
لرواحنا بأنهم ، فنترك يا محروس إن عويضة طلع من السجن ، رجع عليه
مهران واد خلوف والمثل الشلل ولد الخوج ، وحلنا انهم سهروا مع بعض
كلم مرة . وقال عويضة إنه ما دام أبوك مات ميتة ربنا يرحمه الله ويرحمنا
جميعين ، وليس لازم يأخذ قاره منك انت .. أبوه منك انت يا محروس ...
وحلف هل مصحف انه لابد يدور عليك ولو كنت في آخر الدنيا ، وقام طلق
دفنه . وقلب شال هيته وحلف ما يخلق ولا يعدل الشال إلا بعد ما يشرب من
دمك ، واتفق معه مهران والدقل وسافروا من أسبرج قاصنين مصر . ولم يقدرو
راجل في البلدة أن ينجسهم فانت تعرف عويضة وهو على حق في نظر مشايخ
البلد وأكابرها . ونحب أطمئنتك فنقول انهم لا يعرفوا عنوانك ، فمن لم
نعط عنوانك لأحد من أهل البلدة لأنهم ناس ألتهم طويلا كما تعرف ونخافوا
من عويضة أشد الخوف . فمن لم نعط العنوان لأحد التيه . فخذ بالثبات من
نفسك . حاك ربنا . ومن عتقنا يندوك السلام أنجلكنا فرماً فرداً وسيدك سلام

نصوصي قريتنا ابراهيم خليفة وانعمه فضل الله ، كما ان صاحبك السيد
لللهي يذكرك على الدوام ، ودائما في سيرتك .
وكل من بطرفنا جنتك السلام ، والسلام ختام .

جنتك
سيد لير القبط

• • •

ثالثا وجه ابيه مهموم ، كان رجلا نحولا رديما كمرد اليوسى كسر جندا ،
هناك ضيفتان ، إذ يرجعان من السوق آخر النهار لا يجلس مع رجال القرية
سواء من عائلة الساعنة ، أو عائلة الضح ، بلقى السلام بعد نظام ، عندئذ
يضطرم محروس إلى الجرى مسكاً طرف جلبابه حتى يلحق خطواته ، ينظر
وراءه ، نظرات الرجال مختلفة فيها . في مرة سمع أحدهم يقول ، مسكين ما
دام هو حصة خرج من السجن يلحق أباه قرب . رد شيخ كبير يومها . يا
عسارة والواحد ما قلنا بعمل حشانه حاجة وأصل . . يتضاعف انهم فوق
الوجه التحمل . يلتفت إلى محروس . . مجد يند ، ثلث أصابعه الكبيرة حول
اليدين الصغير . يسرعان . التوت حصر . والطريق من المدرسة إلى بيتهم نصح
كله تراب . . فوفه خيال ويرد وسكون . . بوك . . بوك . . بوك . . وبود
الطحين ينفث آخر ما في جوفه ، يسرع رجل يركب حماره . . تشتت في الجو
رائحة التوت . عند باب المدرسة يقف ينتظر أباه . قال له : ما تحبش
لوحك . . تتغلغل رائحة التوت إلى دمه . . حرم في الفراغ طير . صوته
كالضحك . كالبكاء . . لم يعرف بالضغط . نبت كلاب عالية عند أول
الطريق المأدى إلى البيوت ، وموسها عالية كالغيلان . يحمد أبوه . يسرع
والكتب ثقيل عتقه . تبدل فوق صدره . حينه مطلقان بالشمس المنزلة .
نور الشمس . . ربما لن ترجع . . لن تعود . . صحيح ! من بعض
وجوعها مرا ثابة . تنحب ولا تحي . . عندئذ لن يهي ، القرية بصيص ولو من
لمبة سلوخ . سيجيب أبوه نفسه في صرصة النلال المقلوبة المقلوبة ويضمه إلى

صدره ويطنخها عريضة ويختلط الألوان . . الأزرق فوق الأحمر فوق خضرة
شديدة السخاء . من آخر الطريق ترتفع الأرض لثمة كوبرى خشبي صغير
يعلو مجرى الماء . فجأة ظهر ! ! تعلبت قبضة أبيه . ارتجف قلبه كعمامة
صغيرة جداً أبطل ريشها بماء تلجى . تفلت رائحة التوت المنفوس في اللبن
الرائب إلى صدره . توقفت الأب . اقترب منها طولاً . عريض التكوين .
كبير الرأس . على كتفيه عباءة سوداء . تحميا قطنان حريري . ربما لونه أحمر .
أزرق . أخضر . أما اتضاع العبائة فلم يستطع أن يخفى استطالة البدنية ،
رائحة حطر تفوح منه ، حس الأب . أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول
الله انخرجت شفا عريضة الخليلتين . ظلتا هكذا لحظت ثم تشكلت فوقهما
أجسامه لما لون كيزان اللوز الجافة المهرومة .

.. له . . له . . له . . يا ابن سلامة وفك ما قرش . .
لم يطق أبوه . لم يرد أما الشمس فنزلت صابرة بعد أن فلرقتها بلا سند .
ها . وده وفك محروس ! محروس ! يتوديه المدرسة كنان . . والله حال
والله حال . . !

عريضة يتخفى في عين النهار . . يتخطف الطفل وفي قلبه هيطان اللذة
يخفيه . يرسل إلى أمه طالباً القنينة ولليلة يومان في الثانية الأولى لأول عذبة
اليوم الثالث يحمل الرأس الصغير مقطوع إلى الأهل . . معلوم صراخ الأم .
عريضة يتخطف لولاد البلدة . لا أحد يساه . . حتى الأم التكلل لا تجرأ
أن ترفع عينها في وجهه . . لا أحد .

لم يطق الأب . ضم محروس إليه ، في الليل نبت كلاب فوق البيت
الجلود . حلت رائحة خيز ، الليل فوق البيوت كالصية كالجلجل ،
كالهبة . أما وجه الأب فصارت لا يطق ، صفحة كرامة يضاء . قال
محروس والليل يفرق قلبه الصغير :

وساكت له يا بوي ؟

حضر شفت ، ضرب جدار الصومعة الفارغة بيده ، اهتز جسمه ورثى الصغير أباه جداراً يميل . قيط لصب يتكسر تحت زوومة « مركب يخرق . جل برك تحت حمل ثقيل .. سكوت . سكوت ، قال :

ما فليس حد في البلد يحميني من وأنا عسرى ما قتلت حد .. عسرى ما رفعت دهبوس لإبرة في وشى واحد .

في السواد خلق إتيه ، ياختشه فبضت قلبه ، ضغطة ..
أمالى طلبك له يا بوى ؟ طلبك له !!

في الصباح كانت الشمس عالية خارج البيوت ، الأب تقدم في العمر سنون عند الجسر قابلها الشيخ محمود ناظر المنومة

ما تنساش في البندر يا وادها محروس .

من ناللة الخازونة الخلفية المنسفة رأى أباه يقف فوق الجسر وحيداً
للر الضار .. اختفى . ثم ظهر . التوى الطريق ، دعت عينه وكان الرجل
من حوله يثرلون .

• • •

.. طلبك له يا بوى ؟

.. أنا طلعت من عسرى يا محروس يا ولدى ولقيت الناس يتشارو عل
وتقول الى مطلوب لعيلة عريضة ، أبوى قتل بحاله من أربعين سنة . قبل
ما ترك وقيل ما هو يحيى على وش الدنيا . حتى لما كنا هبل صغيرين كان دائما
يقول أنا الى حطيط جيلوك يا ولد سلامة أبوك قتل بحالي . وأنا الى حاند
نلوه . أمه بيخيه دائما وزاه من صغره .. دائما تقول له ربتنا في الطين وسط
البلد . خالك ما تملوش ميم لغاية فلوق ، خالك دمه راح حذر . للوم
يا بني إنه كبير . مرق جلمومة والجبس .. خرج ، برضه وراه له بيخيه .
كان يقول لصاحبه انه جيمونى بطريقة فاحصلتش . جيمونى وأنا حد
الجسر ، باعص لي وهو ساكت . يحيى يخط على في الليل . أمه مفرى

ما بير عاشى حرمة حد في طلبك . كل ما أقبلت آلايه يقول لي لسه .. له
يا ولد سلامة . الحقيقة يا محروس أنا عدت أخاف عليك من .. دا وحش
ما يعرف ليوه ولا أخوه . إنت شليف حد في البلد فلتو يرفع عينه عليه . حتى
الشيخ صالح لما رحل له قال لي وأنا جعل لك فيه ديه شريعة البلد
يا قياض . ويعلمين هو عمالك إيه .. عريضة لغاية فلوقى ما موش
ناحيتك . أنا قلت له عقل يا بني أبنتك سوهاج تتعلم هناك وعدين تروح
مصر . أنا هنا عارف دينها لكن ذيك أنت إيه ؟

قال والليل يخل كضيه ويخل لعاهه بطعم السواد . وليه أنا الى حوت
عريضة ؟ هو واعيى أنا مس دا هو موقبل البلد كلها عل رجل . مشيها
جالوس طين حد فلتو يقول له كفاية .. حد قادر يقول له أنت بتعمل كده
ليه ؟

• • •

وعا يجلسون الآن في مقهى وعشون لي شارع من الشوارع . أسبوع كامل
تجرب مقوماتهم العفوفات وتخصص الوجوه ، والملاح بحثا عن محروس ،
محروس فاضر سلامة . أسبوع ولا يجس . وعام بالفرب منهم ، مشى مجوار
فندق ينامون .. في أى مكان هم يا ترى ؟ في أى بيت ؟ أى حجرة ؟ فوق أى
سور تخفق فلوبهم لليوم الذى تنعكس صورة في أعينهم ثم ينظرون عليه !
هتدق يخل عريضة لحيته . بعدله شال عياله ، يلعب إلى أمه في البلدة .
تقيم مأتم الخال الذى لم يولد مع صوت نائحة عليه من أربعين عاماً .

دار في الشجرة ، نقلت الرطوبة إلى عظامه . فرقة بومة لي الخارج ،
تصايح أطفال صفار ، وحوى يا وحوى . الجصيح يخرجون إلى الطريق بعد
المكون الجماد الذى نزل فوق البيوت . أثناء الإفطار تناول ما تبقى من
الرفيق وقطع البطاطس الصفراء الصغيرة التى تقطر زيتاً ، أسند ذراعه إلى
عمود السرير الحديدى . هذه اللحظات الأولى من الليل ، بداية السواد ،
البرد ، لا يخلق البقاء في هذه المنورة الباردة الصياء الجدران . الحبل يربطونه

تفويس المظالم ، تأمل مقدمة هذا . بلاط الحجرة المربع الأصغر القصير
الذي تكسر وتشتق وفصلت عن بعض مجاري رفيعه سوداء . السقف صناعي
والأعمدة الخشبية التي تحملها ، لم يعد لها من قبل ، كأنه يترك لأول مرة أن
سقف الحجرة يحمل على تلك الأعمدة الخشبية . ليس السقف فقط . حنة
أدوار كبيرة . في كل طابق أمرتان ربما . ربما أحد سكان البيت قريب ، قريب
أو معرفة لموتة وجماعته ، ربما بأولهم عنده . لكن لا . ليس معقولا .
بالتأكيد كان التقى بهم حذفا . إنه يجتاز الباب الخارجي في اليوم الواحد أربع
مئات ، يخرج إلى ثورة المياه بالحوش من أو سبع مئات ، صحيح لا يفتح
باب المنفرة حتى في الصيف فهو يعرف غلغا ما سيؤوله رجال البيت عندئذ
الأعزب الوحيد في البيت كله محروس . لا ، بل في الحارة كلها . صحيح
من يسكن بمفرده في الحارة كلها ، حطة كثر الطهاطين . عندما زاره إبراهيم
أفندي زميله سأل الكوسج . سأل الأولاد . قالوا له .
أبوه . أبوه . محروس أفندي أبو نضرة . مرة حدثت . مرة
حدثت .

وقامه من يده ولد صغير . جاء إلى المنفرة . ألى سهل هذا مأشورة
عويضة . لو أنه دار على حارات الجالية كلها . سأل أي طفل صغير
محروس للصمدي فين ؟ أبوه يا هم . جوه يا هم .
خرجت ألفاظ صاخبة . ضرب راحة يده اليسرى بقضبه اليسرى الباب
صامت بعض إلى زفراته المكتومة . لم يدرك مرة واحد وجهه في المنفرة .
يدرك كم ألف متر قطعها في هذه العلية لا فاسها بخطواته . من إن أقبح
الخطى . صبح إذا مشى على مهل . قال وكان المرأة في جريدة قولها منذ أيام
أن ربة البيت التي لا تتأخر حارها تقطع في اليوم الواحد سبعة أميال . شرع في
إتسامة ما ليست أن ثلاثه . كتلة الخشب خروما . القفل وحيد وليس
ميتا . لا بد أن يشتري واحدا إضافيا . كما الثقلة للطلقة على الحفرة
فالقضبان الحديدية لا تدع مسافة كافية للبروز من خلالها . لكن لكن
لا يمكنه فتح الثقلة الخارجية . عويضة دائما يحمل مسلما . عويضة تاجر

خسومات . عويضة لا يتحرك في البلدة إلا وتحت حياته كارل جومستف . اما
في اللبنة قلن يجلون فرحة سحتها ٨ ملل لبدأ . لبدأ . ربما تسطلت الفوعة
من بين القضبان . السرير في مواجهة الثالثة رأسا . ترى في أي مكان
يعد عنها ؟ الساحة خفية وشتلة المخدم الكبيرة إلى جانبها تكمل الفراغ .
لو وضعه بالمعرض لواجه الثالثة أكثر . لو تمدد بالطول فهذا المن . فليتركه كما
هو وليقل المرتبة من فوقه إلى تحته . مكان ضيق محكوم تحت مستوى الثالثة
بكثير . فتستل الفوعة السوداء مسة ٩ مالى . فليطل الجوز . يدركه . لما
الباب فلا بد من قفل إضافي جديد . لو يسكن جوار أمامه . لكن الفتاة
لعين . عيف . عظيم . رطب . خلال حتى من لبة ساروخ . الحصة أن
المنفرة في الطرف الأخر منه . حتى قبل أي بحر . عويضة كان يبدو موحشا
كالجالية . كالحراية . عدا هذه المنفطات الضيقة التي تبدأ عندما تخطو
سلوى عنة الباب بقدمها وتقف أمام باب المنفرة وتصبح بصوت لين كأنه
صنع الخناج أو ملق السبي نور أو الأيس كريم في يوم حار . يا سعد .
تتأني صاحبها . عندما خرج وراها أول مرة لم ينس طوال يومه وقتها .
بناها عملاق حنية متصلة بالكتب . حل ظهرها بهر خضيرة نحاسية اللون
خليفة . لما ميناه فيها السيد في يوم صيفي حار . في كل صباح ينفذ
الصوت إلى لونه . عندئذ يخرج . ويظل وقوفه أمام الباب ويظهر لها بينما يظهر
التفتاح في القف الضيق . وفي يوم من أيام هذا العام دار على المنفرة . وتصب
حرقه وتواتت حتى ن إن قلبه كقرع الطبل . بلسان مثل همس . صباح
الحير . طول النهار أمس أنه حانة خفيفة . شراخ قارب صغير . إيشابوب
وردي حول رأس حناء يتطاير موحشا في هواء ريمى . صباح الخير .
والمررة الثالثة وقت . لكن ماذا بعد . قال له حسن صاحبه . كلمها
ما تفتش لحنة . لكن البيت والجيران ، ماذا يفعل ؟ الآن لا يعرف ما تفعله
سلوى ؟ في هذه اللحظة بالذات . قام واقفا . لا بد أن يخرج . إلى أي
مكان ؟ ميدان الحسين يزدهم بالمحرمات . طوفان ضوء يفرق الشوارع
للحظة . في الزحام يستطيع للشي متخفيا لكن لو التقى به لجهة !

انفلاته .. جدار أحمر يقطع حرقاً وغلا .. طعنة بسيطة في الجزء الأعلى من
الجسم وإن يتبه أحد .. لكن لو رأى عويصة .. هل يعرفه ؟ من سنين .. من
الصغير .. لم يره .. لم يخلق إليه .. كل صبي في البلدة يعرفه .. كما هو نفسه ..
لا يذكر غير هنيه الخلدتين والرقبة الخليفة .. والصانع السوداء ..

• • •

الجلدة بيالة ..

الله يقطع طالع لا يره .. جسمه طويل زى الجمل .. كتفه عريضة وركبته
فيها فزاج .. طول الثياب مائى وابع جلي في البلد ما حد قافو يلمه .. ما حل
مرة من تسوان البلد إلا ومردخ سمعتها في الطين .. مكسور الرقبة بعد ودا
اليت صنية لثاية ما رجعت في يوم من الخلاء وحرقت رومها .. داعية تخفس
به الأرض ..

الود السيد ..

استكني ياددة أحسن حد يسحك بروج يمله (يقول له) ..

• • •

لين زباني .. زعيم بالغ الثمن .. ليس بالتأكد بالما آخر الخلة الهواء
البارود .. الليل الظلم .. هؤلاء الصبة الملاحين .. لو أنهم لم يكسروا
المصباح .. وكان الخريف يستعد لعمل المكوي يقترب فجأة
في هذه اللحظة .. تلك الثانية .. كأن انفجار دوى أمانه .. مرة ثقت رأسه حتى
البلوخ .. أصبح يمشى بطنه وراح يلمس أعمامه على مهل ولا زال حيا .. صاعداً
أدرك أن حياته في خطر .. كأنه لم يعرف هذه من قبل .. وما حدث الآن .. بعد
ساعة .. بعد يومين .. شيئاً سيحدث هذا .. بل إن أي شيء يمكن أن يقع الآن
نستحيل البوت إلى ضباب أزرق فائع .. يطل لسان أحمر ملل باللحاح من
شق يفتح فجأة في السماء .. يتحول الناس إلى فزات صغيرة .. يتفتح تحت
قدمه ثقب يفرص فيه حتى يصل إلى البلدة المقبلة على الطرف الآخر للكرة
الأرضية .. أي شيء يمكن أن يقع .. انفراس الجسم للطق في لحمه هو

عظمه هو .. لكن متى ؟ كيف .. أين ؟ لا يرى .. حشد يمتص
عينه .. ولا يخل على شيء في الدنيا .. أبداً .. أبداً ..

• • •

بعد التحية ..

نقلت نظركم إلى أنكم قد تفوت من العمل حصة أيام بدون تقديم علو
رسمى .. ولما كانت اللوائح لا تسمح بالأجازة العارضة أو التفتت
للقائمه .. لهذا نلتزمكم بضرورة ..

مدير شئون العاملين

• • •

بالح يا نصيب يطوف بالفيش والفتش بلا الطريق إلى الخارج يلقى قمة السور
الكبير أمام بوابة الفتح .. يتناب الرجال فوق حرمات الكاور الصغيرة ..
شرب ما تبقى في كوب الخلية المظلمة .. صبح رجل .. بصراً .. ضحك
شاب .. مر الجرسون .. يرتدى جاكيت حكومية صفراء لدهية حاملاً صينية كبيرة
مغطاة بأكواب الشاي .. نفت متحابة دخان .. للمرة الثالثة ينظر الجرسون إليه ..
أعشى جبهته بالزجاج .. لا أحد بالخارج .. حتى لو دخل هنا فلن يفتد
وصاحته بسهولة .. هؤلاء المعجزة والشبان لا يعرف واحد منهم لكنهم لن
يتركوه يذهب .. وعريضة مجرم لكنه جبان .. لم يقتل واحداً من صحابه
العديدين وجهاً لوجه أبداً .. دائماً تسلل فوخته من بين أحوال اللذة .. من نافذة
بيت .. لهذا قتل الكثيرين ولم تثبت عليه جريمة واحدة حتى اليوم .. في مواجهة
الباب صورة قديمة بألوان مبهمة جباب الفحم الدفين .. رجل يركب
حصاناً .. باعث للملاح مضيق الوجه .. ألف ألف ليل ونيار خطا فوقها ..
في خضم للكلان .. ليلدار .. أمام المدخل .. لو أن الأيام لمشي إلى الوراء ..
١٩٦٧ و١٩٦٦ .. العام القادم ١٩٦٥ .. بعد عشر سنوات نصبح في عام
١٩٥٥ ويكون البرج لم يشهد بعد .. وسلوى الخلوة الرقيقة لم تدخل

الابتدائي .. لما أم سيد الشهية فصبية ناضجة يترجم حيدلها ، نهداها إذا ما نفضت عن شباك بيتها غبارها ، ونفضي لرميها على عيني ، ١٩١٤ ، ترى من سيولد قبله ويراه ، أي حين يأكله إلى هذه الأيام ، الشوارع الصيقة ، الرجال يمشون تحت البراكس ، .. القونفراف فوق منصة هائلة ، زياتن المقيس يتبادلون الضحكات ، المعلم في الصدارة ضخم ، .. غليظ القشايين يقضي شاعر الرماية ، يتوقف ، يواظب الجميع ، من سيغلب أبو زيد ولا عياب ؟ يصبح فريق أبو زيد ، ويصبح الفريق الثاني لا يهيب ، في شارع رئيسي ينفلق رصاص محموم يستقر في لحم طرقي وحاجز برنسي أصحابها الطوايش .. الموت التام أو .. بائع صحف يصيح النطائف المقطم ، .. البصير يا جندع .

أه لو يرسل موهلا في المبعد أربعين سنة .. لو أنه يملك أسطوانة ندية تدور على مهل ، تتمتع الأبرة ، تنوء في مقلاتها العذبية ، .. الأصوات صفراء رفيعة ، .. هيه يا راحة الزمن الذي لا يعرف في أي أرض من أراضي الله أو هل وبعد .. أه لو يرسل .. هناك لن يرى عريضة .. لن يلصقه الأمان .. الأمان للمتعب للحكوم عليه بالملوث حيا ، راحة القلب القهك المظنوق المرحوش أبدأ اللوحة صامتة كأنها تقول : سأبيت أبداً .. لن ترجع ألوان إلى زهرها ، صباح رجل مصمم .. تكاثف الدخان ، فجأة ! أقرب الجرسون منه .

.. الأسنلا .. يعني لو سمعته .. حضرتك .. حارونا ولا بلع ريفه .. أي مغارب نسل لتشير غيبابها فجأة .. ماذا قصد يابن الأفاهي .. لم السؤال ! نطقت حوله ، النحي ، كاد رأسه يلاسر وجهه ..
.. بصراحة يعني .. كده جدعه ، يعني فيه كام زبون هما متعودين آخر الليل يلفوا كام سيجارة ، حاجة بسيطة كده .. خافين نكون من رجال الشعة .. وانت عارف الزياتن .. وعلى العموم للعلوم .. لا .. لا .. أنا جاركم هنا .. أنا مش من الشعة .

أي حفرة وقع فيها ؟ جفركم ؟ كيف يقول ذلك ببساطة ؟ صحيح البيت بعيد لكنها نفس المتلفة .. ما الذي لا يدريه أن سؤاله لا يخفى غرضاً أشد فتكاً ، فليقم فوراً ، ثلاث ليال يحني إلى المقهى ، لن يطيل الظهور في مكان واحد أكثر من ليلة .. الصوي يعرفونه ويعرفون عريضة ، كفت الأيدي عن إلقاء الزهر .. عرست طرقة الطويلة ، مجلوب في الركن يحملق إليه .. زحف التسل تحت جلته ، ذوات الرمل الساخنة لي عروقه بدلا من الدماء . حسابك ؟ يوقبوي ما تفرحه يده ، سقط قرش ، لم ينحني ، .. الهواء يلوذ ، بوابة الفتوح .. سوق الليمون ، رائحة الخبز الغامض العطوب ، الثلاثة سوداء غريبة ، فوق السوردي الجدران حفر حباط فرنسيون أسياهم منذ مائة وسبعين عاما كأنهم يظنون عليه يخترقون شهره بنظراتهم .. حسابك ! وكان الجميع ، كل من في المقهى .. في الشارع ينظر إليه ، أما الهواء البارد فثلج موحش .

• • •

وأرسل عريضة مكتوبة إلى أمه بخبة قال فيه إنه قرب محالض منك .. وكما أخبرنا بأن تسعد لضم مائتا حل أنهبها فهو كما تعلمون لم تنع عليه ندابة من أربعين سنة .. فرجاء نطمشونا بكلمة لأن عريضة جعل الشيطان يركنا .. ومن هنا الجميع ..

• • •

لو أصحابه عرفوا ما يبدده ..

ها .. أصحابه ..

أي أصحاب ، حسن ، لم يفتروا أبداً ، السهر حتى منتصف الليل ، العودة إلى بيتها ، الطريق البارد ، المصاييح في نهاية الأحصنة الطويلة ترهبها ناعسة ، في العصر قبل انتهاء النهار ، ما أهل شارع الموسيقى ما أن يشجلوا وشارع الخليل وفوق عريك القرام الخضراء حتى يحوطها الزحلم ، صباح المياعة ، فتلات ، شرايات ، التاجر بفلس باجدة البلوفر بثلاثين قرشا ، من المقلدة يشترين الفول السوداني ، يحسن حسن بكلية خافضة في أذان الفتيات ، عند

العتبة يتجه الزحام ، يحرق محروس إلى سور الأزمكية ، كل كتاب يقرئين .
أدب . . علم . . فلسفة . . كله يقرئين المكتوب بتقفل يا جدد . . رائحة
العصر في الطريق ، عربات المدينة تضي سرعة . . أصوات موسيقى من دار
الأوبرا . . وسط الكبدان يقف التمثال الرمزي ، كتلة من الرصاص جعلته
وإشارة من فارس النحاسي بلا معنى . . إلى أين يا حسن . . تنطلق إليه من
النافورة الصغيرة ، الهواء ، الأمان . يكلمه عن ملوى . بعد طول تردد قرر
أن يكلمها . يخرج من الباب ، كانت ترفع رأسها على وشك نداء صاحتها ،
أوما برأسه ، أحسن بها أنتظر شيئاً ، فسألتها عن مدرستها وأين هي فقلت
الطلمية الثانوية . لم يدركها يقول بعد ذلك ، كيف يدلع الحديث من جانيه ،
سألتها عما إذا كانت تذهب كل يوم . أومأت برأسها مخفية صبيحة . حقاً لكم
هو سحيق وهل هذا سؤال ؟ عندك يصبح حسن غاضباً ، عني . .
السؤال الطليعي مني فخرجين ثم تنظفان على مهله . حسن هو القلب الوحيد
الذي يقتسم معه ما يتوه به . . أين هو الآن في أي بلدة أي شارع ؟ عندما
وقف يتأمل الطائرة من قرب بكى . . عني شفته . . لمح الطيار يقف مرتدياً
خلته الأنيقة . . سعيد هذا الإنسان الذي يتطلق بسرعة ألف كيلومتر في
دقائق صحيح . . أين أمان الطفولة ؟ فوق البلدة . . لب ما فريين حين
وحين طائرة ، يرفع رأسه . . يجزي يتابعها . . لكم ود أن يصبح طياراً . .
دالماً يرسم صور الطائرات في أوضاع مختلفة . . فوق منطقة فهو . . في
مكتبة . . بل إنه يحفظ بكتاب يحوى كل أنواع الطائرات . . جاء حسن
مرحاً ، هيئة تضحكان . الليل حوّلها لحسن أسود ، غريب ، استلا الهواء
المنسرب إلى رتيه بطيور صغيرة خفيفة متابعها مثله تهب الكبد في هيئة الأمين
عندما تابع الجسم الصغير يتعد في الهواء لم يصدق أن هذه المساحة الضيقة
نظم (حسن) . . وسنوات عديدة من هموه . . وقتها رأى بلاط الشرف
الحريضة ملائيل رابعة حزفت جسمه ، أثقلت قلبه أطنان الحديد ، قضى
الليل كله ، زمانه فوق قبرص ، الآن نزل بطار أثينا ، بعد أسبوعين وصله
جواب . . لن أسالك يا محروس . . بعد شهرين . . أنا سعيد يا محروس . . لرى

كل يوم ناساً غير الناس . . لمحن إليك ولكني هنا حمامة لا قد لها . ومن شهر لم
يصله المطر فو الطوايح الأجنبية ، لن أسالك ، أبدأ به . ذاب حسن في
بلاد الثلج والضباب . لكم اشترى مجلات أجنبية . ربما رأى حسناً في صورة
شارع مزدحم . أبدأ لن يراه . لا يعرف حسن أي دقائق تمر عليه فتصرع
روحه في كل ثانية من ثوانيهما السنين . لو معه الآن لأقام عنده ، لو سافر معه
لر يتدى عويضة إليه أهدا ، زملاء مدرسة الصنايع تفرقوا في البلاد وانعدوا ،
قابل إبراهيم . شلوه كيف ، أنت في . لازم نشوطك . اتفقا على مهله . لم
يذهب بالتاكيد . هو لم يذهب أبداً . لو قاله الآن ، وفد له إن عويضة
يطلبه . يعلفه . قطع شتاة كهلو من من أقصى الصعيد ليبحث عنه ، سيدور
الحرف في عنيته . يتطلع إلى الساعات المحيطة . . النوافذ . ربما يطل عليها
عويضة من مكان ما . يسمعها بأذنيه الخافتين . في حقول الليرة وسط وشيش
الريح يسمع بها خطوات الأقدام على بعد أربعمائة ذراعاً . سيجري
إبراهيم . . هكذا كلمهم عدا حسن ، حسن الذي راح ، نسي حتى
الخطوات . لو أنه سافر معه . وكتب البحر ، يستمد من الأرض التي يجوها
عويضة . ينزل في اللوات . البعيدة . يرى وجوهاً غريبة ، نسيات هواه على
شاطئ . بحر أروق سمون ينض كالوثين ، الأطفال كالأرغفة السائمة
الطرية . أصابعهم في أفواههم . الطائرة تستل من مدينة إلى مدينة . .
ميدان سائق وحلما . بعد قليل سيط في . لكن لا أمل في رؤية هذا .
مبطل يرى نفس السيوت . الشوارع ، الناس يجرول بينهم عويضة . لن يلحق
حسن أبداً . ربما تقص عويضة الآن . إنه لا يصدق وجود هذه البلاد
الغريبة . صور الجبال المكسوة بالثلوج البيضاء كاللبن زائحة . لا بحار واسعة
تبحر العين عن رؤية آخرها . لوهم يبحار عجائز سافروا ووجعوا بلهواء
مجانين . أما حسن فاختطفه الطائر الخلدني لمخوض به في فراغ عقيم ، ليس
من المقول أنه في مدينة يطلع النهار عليها الآن وهو هنا تحت السرير وعويضة
بحس المدينة يست عيون وست أذان لا وجود لكذلك المرح الربيع فيها ، لا رجال
فصن يرتدون القراء يعيشون في الثلج . الصور وهم . الخيالات المتحركة
ساعة عريضة لمثل ملول . الحقيقي . العصب كالجليل . كنيطان القصب .

الموجود عريضة ينس كل شيء في لحظة ثم يحمر الصحنات ويضمخ ويقلع
 الكفاي وفرحة القلب عند رؤية سلاوى . كل مارتة . قبل انطلاق المنفع دخل
 الحولة ربط الحذاء والتفت إلى الوراء . لا أحد عدم التفتي قبل التفت . بقف
 رجل عجوز طاقته تنفط رأسه قنول حتى عينيه . جاك بنية اللون تأكلت
 عند الكوعين بشرته ملساء كأنها مستنجر بالدم . يسد يديه إلى صدوق
 صغير مصبت الجوانب سطحه رجاسي . قوائمه أربع رقيقة عالية . صاح
 طفل . ألتت امرأة نساء من طابق علوى . هذا العجوز لم يره من قبل . حلق
 له . عيناه لا تتحركان . مفتوحان واستان . لكنهما لا تتحركان كأنه لا يشعر
 به . ربما يتنصع . نزل العرف من جسمه . بدأ الصيام له قابلاً قاعلاً . امتلا
 حلقه بفشر سلك . كاد يبيع فيه من أى أرض هو . هل هذا وقت بيع فيه
 للناس . اندفع فجأة صر عرفة . يوسف ابن زيب التي لا تسمع عينيها
 أبداً . بتعريفه حمصة بأعم حسين . اهترأسى عم حسين . كاد محروس أن
 يصرخ غوغاً فلما سمع صوته . صوت ربيع ربيع جده كخبط نجبل
 وشماع . حمصة ولا سمسية . جالت يده فاستل الصدوق . أخرج قطعة
 الحلوى المرصعة بالحببات الصغيرة الصفراء . عاد يمحلق في الهواء . حل وجهه
 ابتسامة مخفية . استهزاء . وفجأة رفع يده . قبل باطن يده وظهريها عدة
 مرات . اهترأ دماغه . اندفعت الدعاء إلى قلب محروس . هذه الحركة ثلاثه
 بقشعريرة كالصداع . يوسف الصغير ينظر إليه . . اتبه إليه . أمسك يده
 حين نه يا يوسف . عم حسين . دى أول مرة يقف هنا . أبداً طول عمره
 ساكن هنا . بس ما كان يطلع من أوضة تحت السلم أبداً . مرة أخرى .
 عم حسين يقبل يده . ضرب الأرض بحذائه . أغلق باب الدرة جيلاً .
 عاد يتأكد من إغلاقه . . زعن واتهر . . موصى كتيبة حزينة . في البيت كان
 يقف على سلم المحطة . السلام عريضة والرجال يجلسون القرفصاء . أمامهم
 مقاطع وصافح وصناديق منبجة وقلل ضار . عابرو الميدان قتائل . لتقوى
 الكبير في مواجهة المحطة بأعت الطلاء بتصدره إحقاق قديم . . سجاتر
 مسون . . معدن كوتلويلى . . ومضت بقرة بينة اللون . سبة تعبر ليدان
 متمهلة . صفرت قاطرة ، نزل هودو غريب كأنه الصفيح فوق النيطاط آخر

الليل . من أمتاء الحواوى . موصى لونها نحاسي . طويلة كأنها أحر زهرة
 الخليل . حل على عير القيرت والخضرة . تحقت . تعلو كالنحيب . انقبص قلبه .
 معصمت النساء شاعتهن . بدأ حال قهار يسود أروية صفراء ويعملون
 أوقاتاً نحاسية كسبة . عصبوها على أمواجهم لحظات فيحوم النحيب ويصغر
 صداع القلوب . عصبوها فيصم بواح النساء المائليات وراء الرجال
 أعففى عيه عندما رأى الميطاق حائلاً . فوقه صفرة عريضة . أما الهواء للدم
 كماء ساخر . في هذه اللحظة دخل القطار المحطة . لا يهوى إلى أين الميلاء
 ساطر يرميها . ولا أى شعير يجلس الآن فوق المقعد طلى أسند ظهره إليه
 يومئذ . أين ربح اليوم نفسه . النهار الرصاصي . الأذ يقول انه ربما لم يمر يوم
 كهذا ولم يمت أحد . أى شيء يعنمه عن حال الجنان المدفون من سبع
 سنوات . اليوم الأول كما هو . الثاني تحفظ العياد وتنفع المروق . يتزل
 حارس المقبر ليسرق الكفن . في الثالث نعلو البطر وتسم آلاف المخلوقات
 الصغيرة لتأخذ نصيبها من الحياة . شد الغطاء حتى عتفه . تأمل حشب السرير
 والموتى . حين المقبول حداً في يوم معين . لحظة معها يعضض عبيبه ولا
 يمتنعها أبداً . أبداً . لن يسمع ولن يرى . أما هو فما ألرب اللحظات

لن يكف الزويد عن صبح السائل الأحمر فجأة . لن تخرج الضباب الزرقاء .
 زحرف سحابتها ليتلقاها ملائكة اليمين والشمال فيسألونها الحساب . هويضة
 هو الذي حده ميعاداً لكل هذا . ترى هل عرف البيت أولا ؟ أما هذه القيلة
 فلم يمر أمره منها فزول الشتاء . يتنهي رمضان . لساعاته مذاق غير المذاق
 كم معنى من الليل ولم ينتق عنه أكل للمسحور بحره . ربحهم معد قليل ويشترى
 من سلطانية اللبي . صورت خطوات ثقيلة . رفع رفت . أصغر . الوقع
 ثقيل . لم يتعود سماعه في مثل هذا الوقت . كل ليلة . هل هو الحذاء الأسود
 والرقية المحلاة بقطعة أسك صغيرة تبيع للقدم الضلطة أن تزلق داخله .
 لوزلات الخطوط وضوحاً . أين المخرج ؟ النافذة . للضباب الحبيبية .
 دخل الخفاء . باب البيت . في القناء . نوجد أمام الباب . صمت ! بيع
 رفته . أرحف فنية محاولا التقاط حريق البلاط تحت الثقل المخيف نزل مسكون

قدس .. حمد مكين .. مأسورة ميؤ .. أين راح ؟ ربما يتظر حتى تحب
الفرصة .. آله رقبته المتصلة .. السرير ينفقه .. خرج من تحت على مهل محاذر
أن يحدث صوتاً ولو خفيفاً .. فجأة توالى صوت عصا تصططم بمعدن
البيوت .. فوق النوافذ .. صوت عجز كلاء البارد في يوم حار تسرب إليه

- وحده الله يا عم سيد .. يا عم صالح وحده الله .. يا سي سمودي
يا عم تاذر وحده الله .. يا عروس أفندي
لا .. لا داعي .. فخر تاحية الناطقة .. صالح من وراثتها :

- عم عيده .. عم عيله

نزل صمت لحظة .. جاء صوت الرجل من الخارج مستملاً .. أجه
صوت خال مرثف :

- ما فطش داعي نطفة إسعي .. أنا دائماً حاسي .. و .. عبيدك
محفوفة ..

بدا العجب في صوت الرجل عندما أجه مواءماً .. لكن من يعلم ؟ ربما لم
يكن هو صاحب الخطوات .. ربما لم يهتد إلى البيت .. ربما تصادف مروره ..
يسمع النداء .. عندئذ يكون سلم نفسه إليه

أهص .. أهص يا عم عيله

- وحده الله .. وحده الله يا نايم ..

توقف حسين المكوجي عن العمل .. سأل صبيه

- مثل عروس أفندي التي دخلت به من شوية

- اه .. أنتكر هو ..

لوح الأسطى حسين بيده :

- نيت أقول له إن واحداً سأل عنه ، إيفر تكرر أتوك له ؟

- فيه سابع وكونة وسلة .. وفيه مكونة بالفرن وكباب وكفتة ..

الدخان يحمل رائحة اللحم المشوي .. الفريسة البيضاء الكتلة فوقها
يعروف حمراء مستفحة .. مطاعم الحسين .. الجالسون في المطعم قلة .. هذا
البحر يجول الجدار .. امرأة بيضاء قتلها أنظر .. ورجل أنصر منها
يجلس أمامها في الطريق الخارج .. شبان يلوحون بأيديهم يبتون .. عريضة
لا يأكل الآن في المطعم .. ليس بين الموجودين .. ربما يلقب حل ناصية
الطريق يوقب الشرح ..

لكنه ليس بالداخل :

- أبوه يا استاذ ..

لا زال يتظر .. أي شيء يأكله ؟ من ألبام لا يعرف غير الجبة والحلاوة
الطحينية ..

- سبتخ .. أرو ..

الوجوه تتابع .. الأضواء في الخارج .. حمراء وزرقاء وعطراء عادم
السيارة الخفيفة يروح ويحده بسرعة .. الزبائن يتكاثرون ، محاللات البحور
والضباب تصاعد لتسلا الفراغ ..

حريات الباعة الصغيرة تصطف حل جنتي الميدان .. المظنة الرشيدة
تضمن القفص .. لو وقف فوقها لاستطاع رؤية كل أمس في المدينة .. في البلدة
يصعد الرجل ليحرق البليغ من التخييل .. يطلق صوتاً ليحذر المحرم في
البيوت تلحيطه للتخفية .. أما عريضة علو تسرب إلى الثالثة واستند إلى
الحلجز الحديدى ؟ سيعرف أين يخطو ؟ كم مرة تنفس في الثانية ؟ كيف ينهض
قلب ؟ الأمانة التي تحول يحمله .. نوعية الذكرى .. أهل البلدة يعرفون أن
عريضة يلم بكل شيء عن ضميمته قبل انقضاؤه .. عندما قتل الأحرار جاء الله
كأن قد انتظر التوقيت الذي يتسد فيه بين فواهي امرأة سمدة التي يشتمها
ويشتمى مصافها .. لن ينهب أي شيء .. عته .. هكذا يعلم الجميع ..

لثقت حوله .. الطلبة والزملاء من الطرف المقابل للميدان .. طلبة يزحفون .. يضحك شبان حوله .. شبو ياشبو .. يهزون صدورهم .. ينظر إليهم وفرض شفته .. كأنه يقف على قطرة صغيرة والله يتعلق مائتاً من تحتها .. (اضحكوا هزوا أروافكم يا من يقاتل تلويح ميلادكم ميلاد .. انصقوا بالبنات .. أتعلمون أنكم بعيدون عن عويضة ؟ لو أصبحت ساعة في معصم أحدكم لتبته وقطع يده .. لو انتهت ساعة واحد منكم لأعطيها في وضع النهار والخمس تغل في السماء ولن يجرؤ أحد على عز أصبع في وجهه .. صلح منادى العربات .. نزل رجل حول رابته كونه حوله منقطة بدو القريضة .. فله برأسه .. رفع للفتى يده بالتمية .. أشار الرجل إلى البيوت القديمة القديمة عند ضلع الميدان الشليل :

- إله ده ياريس !

- دي بيوت يا سعادة اليك .

عز رأسه .. ابتسامة تودعه على وجه الفتى - أشار إلى المجلوب - حامل وعاء البخور .

- إله ده ياريس !

- فاهي آدم ولا مؤاندة مجلوب يا بك .

فيه ، إلى الحسون ، أين غاب عنه ، من سنين لم يعرف الطريق إلى هذه الهدأة السكرية التي تلهه منذ مئات السنين . حل بعد خطوات منه ولم يدخله ، لم يقبل ماوى الرأس القصور عن الجسد والتي طوت من كريله إلى مصر مدة أربعين يوماً لتضيها أم الغلام المسكين الفقيرة وقضيا يراى إليها . عويضة لن يقبل الفدية ولو كانت خزائن قرون وكثور سليمان الحكيم . كيف يرفع رأسه وسط الناس ، لايد أن يجر عتي محروس .

للقصورة مظلة . فوق الباب المظلي للزعفر ورود حمراء كبيرة ، بالدخل هدوء غريب فقد حتى نخاعه ، في حائط الباب الأخضر خارج للمسجد شق لا يروج الصلوات منه ، قال الشيخ المجبور إن الرأس حل هنا بعد رحلته

الشقة . ومن يومها والمطر الحزين لا يخلو للكان ، قال الشيخ الحزين أيضاً لو كشفوا عن الحسون الآن لوجدوه على حاله ، ملاقته دعت . أكد الشيخ ما قاله . ما هو يرى سيد الشهداء ، رأسه الحبيب الطاهر الذي لم يكف عن ذكر اسم الله طوال حياته . يدخل القصورة يسيل القصور ناعماً وقوراً ، إنه يرى سيد شباب أهل الجنة . هذه القصورة يجول الحبيب . تحت السقف العالي المرتفع ، هنا وليس في ثرى مكان آخر من يستطيع عويضة التعلق به . فله دخل الحبيب يصنح عنه . يضره ، إنه ظل سنوات يمر كل يوم أربع مرات أو ستا ولم يدخله بل لم يفكر فيه . الآن لن يخلو للكان ، بالدخل أمان لن يعرفه إلا هنا . يجول الجسد الذي لم تحف بماؤه ، ولن تحف حتى ينشأ النسخة الثالثة في القصور ، تضمة طويلاً أربعون ألف سنة . عليها صمت أربعين ألف سنة . وينشأ نسله الثانية ، ثم يجره نفس الصمت حتى ينشأ النسخة الثالثة . لكن الحبيب مرصد يا سيد الشهداء ، المقصورة مظلة بأعصاب العين ، يا صاحب القعدة الزكية . يا ريان السفينة . عويضة يسمى وراه ،

يقضى راحته ، يسمع صوته ، حبه ، حركاته وسكناته ، عويضة يلتله في هدوء ، ثم يذرية شباب الجنة ، يا ملجأ الشاة المذعورة من اللئب ، ياتور الأرض ، محروس ينهيك أنت ، أيوه ، كتلوا ابنك في حديقك بعد أن مضى الله منك . جرحوك مائة وسبعين جرحاً . فبحرك واحترؤوا رأسك وداسوك . اه لو يدخل من يخلو لك أبداً ، ولن يشرم من جنبك وفي كل عام ، في نفس مباحك ، بنهم اللئب عليك سنة بأكلها حتى تبهث حيا .. لو يدخل .. لو يستكين . الباب مرصد .

لشبر الحشى دخلوه صله .. بكى .. يد تفيض قلبه كأنه صبي صغير تركه أهله ونزل عليه القليل في الحلاء بعد أن دخلوا للنجاة الأمين . لقد بين الرجال . الجميع يملقون إلى شرفة خشبية عالية ، لم ير شيئاً . الجميع صامت خلتج . مال إلى الجالس بجنبه يستصره ، قال الرجل وكان صجوزاً جدياً .. جيت قديمة . قلناه نعل ، يصلبه حرقان غليظان جفافاً ..

مقرى - جلبد صوته أحل من صوت عبد الباسط .
 به .. منذ متى لم تكلم أحدا .. كأنه بجرك لسانه يده ..
 - يا ترى حيقرا سورة إليه ؟

لم يرد الرجل .. النيف الثقيل ينوء به السقف للون .. رجل يحمل
 قربة ماء ومكأ أكواباً نحاسية ، تناول من كؤيا تسربت بروفته إلى لحمه . ما
 ألد الماء في هذا الوقت من الشتاء ، نهاية العام ، يوماً الرجل شاكراً ، عاد
 يتبع زخارف السجادة المعقدة المشابكة ، رفع رأسه . الرجل يحمل غربته ،
 ينظر إليه غاضباً .

- تعرفه يا أستاذ ؟

كالمسرح التلغز ، يحدث في جبهه من الفطمة المعدنة الصغيرة تنصرف
 الرجل مبتعداً .. يا كريم .. الكل يحمل نامة الشرقة الخشبية المصقولة ..
 لا صوت ، وقف ، أى ضجة طفيلة فوق أرض الشوارع ، الطريق منطى
 بالرؤوس ، نزل تحت الرصيف إلى أين ؟ البيت ؟ النخلة تحت الشجرة ؟ وما
 يتخطه بجوار عود اللبنة خارج للتدرة ، وما تحت الناحية . لا يعرف إلى أى
 الناس تنسحب هذه الملامح التي وصلها له حين للكوجي . لكن هذا القريب
 وليس أن يقول اسمه ، بل وسأل عن ميماد دخوله وخروجه .. لابد أن يتنظر
 والزحام سيتلاشى بمجرد عبوره حارة الطولوط ، تصبح الشوارع وحيدة ناعية
 شرقة إلى الدماء ليلياً كما سيجد ميدان الحسين نقي يوم العيد .. تلوح كل
 هذه الضجة ، كثيراً ما عبره في الليل ، يبدو متشامخاً خالياً تماماً ، إلا من شحاذ
 يفتش رصيف الجميع . ياتح لين يفتن أبواه . لكم يبدو الحسب وقتها وحيداً
 صبوراً تنظف الآم سنين طويلة من الغربة ، آه لو أن القصور مفتوحة .. ألف
 ألف سنة والرأس لم يلتق به أبداً .. أبداً .. أما عويضة فما أتربة ، لن يرجع
 إلى للتدرة سيمضي بين هؤلاء حتى يبدو النهار الأزرق ، حتى حول الميدان ،
 لو سلوى معه ، أى أمان يجوده ، أى مشاعر تريحه ، منذ شهر وكانت أنفاس
 الحريف لمحضر أمام زحف الشتاء القاسي .. وأما نصير الميدان يجردها متجهة
 إلى محطة الأوتوبس ، صمم أن يكلمها ، تردد ألسنها كثيراً . اندفع وتدفقت
 الدماء من قلبه إلى أقصى أطراف جسده ، ركبت ، ركبت ، ركبت .. كذا أن

يحاذي بطرب على الحديقة الصغيرة . عندما تراجع فجلة ، كان بدأ لطمت ،
 ينادى هل لقد الرغوى وراح يرقبها تمتد . فزاعها في فزاع شغب . وما
 يشبه ، بما لا يقل عنه .. أى حيز تقب عليه . الوقت عصر والشمس فوق
 النيل لا تين . عبر الكوبري . أى وحدة مرهقة كمن موسى مصقول آله ؟
 حتى حسن راح ، لومعه لحكي له ما حز قلبه .. لكنه بعيد . وسلوى نالته
 مثل كهوف الجبل ولا أصدقه .. لا شيء غير وجوه فريفة ثم حوله ضاحكة
 زاهقة .. حاسة .. حتى للتدرة بعيدة .. لا يجرؤ على الرجوع .. لكن إلى
 أين ؟ حتى مشهه أحد ؟ .. رجل عريض طويل .. جليباب بلشى .. معطف
 وير الجمل .. إنسلة تخلفه على وجهه ينظر إليه .. لا يذكر ملامح
 عويضة .. لكنها لوصف للكوجي .. التفت ورأه .. غاص قلبه .. أين
 الرجل ؟ لا يعرف عويضة . لكنه سيضم راحته .. عويضة قريب من هنا ..
 وما داخل واحد من هؤلاء ... الخطاب في جبهه من البنية يقول إن اللعين
 أرسل لأمه يخبرها بتجهيز مناعة على الحال للقتول من زمن لم تعرفها كنود
 ولا نخرج البنية منذ تحت حمام .. أين هو .. ؟ أين ؟ تزايد الارتفاع الناس
 حوله ، دلو حول الضلع الشرقي للجمع ، الموازي حارة أم الغلام . انهم
 سلم شلوه ضخم كبير طرفه مرغوهان إلى أهل .. داخل لده أستان فحمة
 ولسان أهر يجر احتراقات حديدة سريعة .. صاحبت امرأة على رأسها حلف
 من ريش ، الشرى من بخور ، صاح مجلوب يرتل جاكته عسكرياً قديمة
 حبة بالأنواط والشارات وفتح قباض صغيرة . رفع سبله الخشبي الأخضر
 والكتوب قوله .. لا إله إلا الله .. زعن في الناس .. أين عين الخلد ؟ مد
 شاب فزاعه . احضرن صديقه .. تراجع إلى الخلف ليناله .. يا راجل من
 أين ما شفتكش .. عيط البائع على طيلة بنية اللون مزعزعة الحواف . قال
 للشباب الذي يرتدى غطاءً ورقياً يمثل فرحاً ، حتى نغمتها ترقص أجدع ست
 في البلد . مد القمعة بدأ واحدة سليمة .. سبع حبال وأهمهم يابك . طرح
 شاب يده فاحتكت برقبتك قصيرا مبتلة .. تهد بقوة . شاب أسمر طويل
 يجر وسطه ويلعب حليبه .. قال ياتح الكتب . بجبهه وعشرين في ليله

تخفي يفي ثباتين .. الثلاثة حل السراقة الكبير . دخول عموي بثلاثة
قروش .. فوق الرصيف اقرب من طفل صغير أيضا حلو الميئين ، قال
بصوت هانس . عاوز نسران بايه . ضحك الضوء حول الثلاثة صرخ رجل
مقلدا صوت امرأة . تطايرت رائحة الكيباب من داخل خان الخليل .

والثلاثة الرخامية غرماه جف ماذا . الرجل قريب من .. لكنه لا يراه ..
أين ؟ صوت المطرية سيئة أم السعد صاحبة السراقة للطفل عن حارة
الوطايط ، توحش غناؤها .. تلبعت الأصوات .. وللعلم .. والاستاذ
وأنا وأنت سلام كبير قري .. هل يسمع اسم عروضة أبدا ؟ لكنه يظن .
يعرف أهل البلدة الساكنين عاقته ، لا يقتل ضحيته مرة واحدة ، يتركه في
مناوله حتى الملحقة التي يجدها هو ، وهكذا يمشي كل مزمار صغير أو
صاحب بئنة أو صاحب جل في البلدة . وهو يظن أن عروضة يظن هو وعنه
على مائه ، فلما لا يمرز واحد حل الثغور أثناء لو ذكر اسمه بصوت
مرتفع .. بالتأكيد عروضة قريب جدا . لكن أين ؟ لا يعرف . ربما الميدان
الضاحكان الناصتان ، الصوت الناعم .. الأذان للرحمة .. ابتسامة البائع
الزائفة .. فضب جندي للزور . مسامحة البائع .. شهوة للزقاق إلى علم
امراة ، حنا هنا .. الميدان كله يعرف ولا يعرف ومع هذا يشكون ويتجادلون
ويشتركون الطبل ويوتلون لحنمة الريان بلود .. عروضة هنا .. كنهوا ؟ أسفا
إنكم لا تعلمون .. أبدا .. أبدا .. حتى ساعى البريد الذي حل رسائل
الجد أبو الفيط كان لا يبدو عليه أنه يعلم ما تحويه الخطبات ، فونه اليه
لا تهر من الأصواء .. أه لو أنه في مكان ناء ، لو هناك حياة غير الحياة لو
عاش إنسانا آخر في عالم ثان .

لن لمشي غير عاتق وثواني يشق الزحام ، تحصد كل هذه الضجة . يسكت
الشباب الذين يرتصون الكويست ، نطل سيدان النساء مكتوبة بلا حجاب
تخطيها ، عندما يقرب من سيديون كلهم ، لكن لن يرفع واحد منهم صوته
باحتجاج ، لكن لا يد أن يتجههم قبل اقترابه ، لا يد أن يوجد شخص ما في هذا

الزحام بحسبه ، لم يفتقر له عروضة بخروجه ، لا بد .. لا بد .. حلو وأمه
تصحب عروضة غزوا بالآ . من يوقه في الزحام ، لكل لاء .. يضحك ..
يضحك . اقتصر جسمه . زحف تحت جلده مثل شباك يجز عروضة ، تلفت وراءه
وألمه ، إلى اليمين وإلى الشمال .. ثمة خبابة تظن بجوار أخته ، أي حشرة
يسمع أزيزها في الطوفان ، هي روح أمه لم أمه ؟ يقولون في البلدة أن روح
اليت ، إذا ماحت إلى شخص حي ، بدت في حياة خبابة زرقاء شطافة
الجنات لا يراها ، لكنه يسمع الآن .. لمبقت ليلته من العرق الغزير ، اعتل
للحدة النافورة ، عبر المسافة الضيقة التي تفصله عن الزهرة الرخامية التي
توسطها .. انتهى بأخيلة من رؤوس سوداء ، لا بد أن يمرقوا أي خطر يكمن
بهم ، يتوحد . أي سكن تكلم أن تلامس رقبته ؟ لا بد بأخيلة الرؤوس
السوداء والعيون والأثواب والضوء الأزرق والأسنان الذهبية ، ووقع الخطي في
جوف الليل ؟ لا بد أن يشعروا به ، يتجهوا إليه .. ربي جاكته فوق
الرصيف ، لوح يطالقه الشخصية ، ذهن بأهل ما يمكن لأوتار حنجرت أن
تخرجه ..

— أنا واحد وثلاثين سنة وستين .. جميلة .
طرح البطالة ، فليعطها عروضة ، المهره . فليرحه ، فليقبل إن لم
يجدوا أحدا من الزحام بهذه فلا مالح بعد اليوم ، ولا حاسم . انتهى بأخيلة
الرؤوس السوداء ، بامعرض الصون للترجربة الزجاجية .

أشارت سيده ثبقة جدا فستأنا اضطر قصيرا جدا ..
— لوك بأحلم .. الرجال يابن عليه حيلب لمة .
ثم مضت ، ربي آخر قطعة من ثيابه الداخلية في إلهاد المسجد ، تكاثف
الزحام ، أشار إليه شبان ضاحكون . الخبابة تظن من جديد أي صوت آخر
سمعه ، لم يبدو لهما . بكل ما تبلي في عيلايه من قوة صاح للمرة الأخيرة ..
— أنا واحد وثلاثين سنة وستين ، أنا واحد وثلاثين سنة وستين جميلة 11

الجميع يمشون ومجموعة شبان يرتصون حلقهم بالخشاء . شنوا يا شنو .. لم
يشعر بوجع البعد الذي تلحس لحمة الطريق ، لم يدلع عنه أحد ما يده ،

تولّى وضع طبل سريع متوفر بمسوح يوشى بجسم واقعة يتنى ، ككث سمع
ضجعة هائلة تخرج من قم سمع كوصافه من حين المكوي . عاد طنين
الطبلية ، دفن رأسه في صدره ، واتحنى حتى كاد جسمه أن يقرس ، وسمع
من حدة يشق للزحام وقتاً ، تكمل الخطى لا يوقفه أحد .

هداية أهل الورى لبعض مما جرى في المقشرة

اطلعت على هذا المخطوط منذ شهر في خزنة كتب أحد الجوامع القديمة
بالبهجة ، واكتون بغربة موضوعه ، إذ لا يمت إلى أى من المسائل المتعلقة
بالفقه أو الشرع ، حيث تضم هذه الصفحات ذكريات أمر السجن الذى
عرف في عصور المماليك الظاهرة باسم المقشرة ، وكثير من صفحات المخطوط
مقطعة ، غير أن أثرت نشر ما رجسته لندرة ماعنه وغرابها ، ولم أتدخل إلا
تقريباً كما لاحظت أن المؤلف لم يحدد عصر السلطان الذى تولى فيه أمره
المقشرة . غير أن أرجح أنه كان زمن السلطان الأشرف قايتماي . أو الأشرف
قائصم الغورى . آخر سلاطين المماليك . ولعل القارىء أو الباحث يجد في
هذه الصفحات ملحة مفيدة وصفحات هامة لبعض مما كان يجري في مصر خلال
هذه الأزمان البعيدة . فخر الله لنا ما تقدم وما تأخر من دنونا .

رب يسر وأمن .

أخبر دنونا يا سلطان السلاطين . واسر دنونا يا أرحم الراحمين ذلك
نريد وإليك نستعين ، اللهم صل وسلم على سيد المرسلين الذى كان نبياً وأمام
لم يزل بعد بين الله والوطن وعلى آله وصحبه أجمعين .

أكل وجوههم . فذاهم زدها ضربتهم فجأة وصحت لهم إنه لا أمل لهم
برجى . فلو جوه تبدو كرية مخلوقة . وإذا أردت أن تجعل رجلاً من المحاليس
الجند يركى كائنات ويقول أنا امرأة ، فاعبره أن حيلة مات منهم اثنين وأن
زوجه طلبت الطلاق منه وتزوجت ، وإذا بتزل الليل تطلع الوطواط وسمع
صوت أجهتها عندما تصطم بالجنود أو أرواحها تأكل الثيق المختطف من
شجرة قرية . وساعات يصرخ المحاليس من أسفل وتنبعث رائحة كرية مبهلة
هب في أسلين كثيرة فجأة ويكاد السجاة أن يجروا على رؤوسهم لفظاعتها .
ولم يعرف سبب ذلك .

جلس سجان كبير وأخبرني أن الأمير طهطوى مقدم ألف لوسل جنة
محاليس لإدخالهم حلتاً . قلت كم عددهم . قال أربعون ولين لخصي ساحة أو
أكثر وكان الليل قد نزل قلعاً حتى سمعت جلبة بأسفل . وقلت عند حافة
السور ولنا الحرق لروية المحاليس الجند . هكذا كلها جاء وارد جديد فنهت أن
لوك بمرحة . ولورج اخن من ؟ أعلم . إني لا أعرف من هي . إلى المشرة
إلا بعد تسلي له ، ومن يدري ، ربما كان أحد الأمراء ، ربما الأمير الدواوير
أو أتابك المعسكر نفسه . لا يعلم إنسان في بر مصر والعرب والمجم على
المشرة . وإذا يكون واحداً (كلام مطموس في الأصل) ماذا يدور بهاته
وكيف . وكيف يجد نفسه الآن . بعد أن كان في صباح اليوم نفسه . أميراً
عليماً تلقى على يديه الكوسك (الطبول) ومشى المسلة أمام ركبته . وقبل فكه
في الزناجير (الخنجر) أنشبه مرة واثنين وثلاثاً وأجعله يلمس في البهجة
والشق ما لا غير فيه . لا يعلم إنسان على المشرة . أنت أمير . أمير في بيتك
وحل نفسك . ويقول له ربما يحرموا بيتك ويختصروا نساءك ويهروا شاكك
وقبلك وكلما حلا الإنسان في قلعه زدها في إيلامه . هكذا يقول مولانا
وسبحان من له الدوام .

فمت متجولاً فوق السور . الطريق الكبير تحت مقطوع الرجل من المارة ،
عليه خلة . فمن ألبم نأدى مولانا بالألمشى أحد بعد المشاء ولا يفلتر المليك
طباط ولا يتزلون إلى اللبنة مائسى الوجوه . ضربت الحجارة يندى وانهدت

لما كنت قد توليت إحدى الوظائف القوية في زمان ، فلي أنضم بها
مولاي السلطان ، ونظراً لما وقع لي من حوادث خفية ، وتواضع قد تبدو لبعض
البيعة وتليخص طرفها ، ولما كنت أخصي جلي وقتي في المشرة ، قلت فلأخط
شيئاً بما أراه وما أسمع ، ومن يدري . ربما قرأ مولاي أنشرب زماناً ما كتبه
ليعرف لي أي حد تفاتت في وظيفتي رافقت فيها الألم . وكنت أرى منها
الملاك ، عندئذ يرق قلبه . ونظم على بتقدمة ألف أو ربما مئتين من بعض
جوده ، وأعلم خبر الله لنا أجمعين . إن السجن الذي أنا فيه ، يقع بجوار
باب الفتح فيما بينه وبين جامع الحاكم بأمر الله ، وسوى بالمشرة . لأنه كقيم
موضع لي كان يشر فيه القبح . والحانة والسورة والشاي وجميع أهل مصر
يقولون أنه من أشرع السجون وأشدها حرماً . يلقى المسجونون فيه من القبح
والكروب ما لا يوصف . والذين يقولون عنه هذا لم يروه من الداخل فكيف هم
إذا دخلوه . وأو مر الرجال والنساء من جوارده لقلوا سرا أو علانية وهم من
بناته يتعلمون . اللهم صافنا شره وعلامه . وأسعهم يقولون هذا ليس
منهم . لا يستجد واحد مكنم نفسه من المشرة . ربما اليوم وسط حياك وظل
جوار امرئك . ولي الصباح في أسفل طباق المشرة .

ولي بعض الهبال التي كتبها عنا أمسين بوجودي ونحس ، في التصف
التي من الليل يكون المدور خيطاً ككلمات والظلام خيطاً حتى للذين ألقوه .
وأسمع أصواتاً نحس من الأحياء المتجولة . لا بين فيها صوت الرجل من
صوت المرأة . ولا نضر منها كلمة ، تقوم متجولاً حول السور الذي يعلم
البهاء . إذ أقرب من منتصف المنح أسع صبياً . أصواتاً رقيقة مبطوة
يقشر لها الجند ، من هنا يبدأ سلم حلزوني هابط إلى عمق كبير . على جلقه
حجر ضيقة في الجنودان . لا يتمد فيها الإنسان على راحته كما لا يمكنه الوقوف
بطول قامته . هذه هي المواضع التي يربط فيها المحاليس ، وربما نزلت من
حين إلى حين يتقدمي السجدة يتبرون السرايب ، وأسأل نفسي ما الذي يذكر
فيه شيخ نفسي هنا ما يزيد على سبعين عاماً . كرشاب طهي عليه حيطان .

سجناً كبيراً . سألت . . متى يصل الزوارد الجديد ؟ قال بعد ساعة زمن . قلت
لم تعرف بعد من هم ؟ قال إنهم فلاحون . عززت رأسى بلا اهتمام . هذا
شيء يثير القرف . سألت أين نضعهم ؟ قلت في القاعة الصغرى . قال
الأرمون مرة واحدة ! قلت نعم .

رهب يسر وأعين ..

كل منهم كالعود الوديع أو عصا الخيزران ، ثيابهم مبطنة . . ثيابهم
مربوطة إلى بعضها . . حوبهم جاذبة كأنهم زجوا إلى يوم الخمر . لا تملو
منهم صهيبات أو أصوات . أما القليل فساكن لا يهدد عدوه صوت . ولن تلام
في وقت لرب . فلاحون بعضي أمراهم قال سجان كبير إني لن أجد فيهم
ما يسر . كلهم مشبهون للقرف سألت واحداً منهم . لماذا لمثلت بالعين مميكة ؟
طلع صوته متحشراً غليظاً . والله لم أجد حشاً ولم ينكسر على درهم واحد من
مال السلطان . صليت آخر على قلبه وتلقى الضفعة بدمه كأنه يقول . .
إنسرب فيها ورجعني إلى امرأتى وحالي . ثم قال إنهم كانوا في الغيط يومون
اليدل ولا يدرون إلا القرمصان يكسبونهم . ويخونون ثوبين رجلاً ويشكوبهم في
الحديد . سكت الرجل وصاح فلاح عجوز . جئوا بنا على أننا هربنا
يا سيدنا ، ما غدروا بكوكوا حرياً واحداً من لعل الجبل . . فأسكنونا نحن
حتى يفلوا للسلطان . . أنظر أسفرتنا لك لو جئت حاشياً . ونحن لم نحس
والم . دوت حورهم ولحت أربعة صبية صغراً يمتد إلى من للحمليس أن
يسكن مع واحد منهم ، صاح سجان كبير أمراً إنهم بالاً يزحفوا في الليل .
لأن السلطان سوف يرضعهم قريباً . أرتفع عويلهم كالنساء . زحلت فيهم
أسكنوا . ودأبت رجليهم نحيلة جداً وظفهم يابرة لحت شيئاً حينه
واسكتان . سألت هل أنت متزوج ؟ قلت إمرأتك شابة ؟ لم يرد . كفه
عن بيتان . قلت هل مول . فن ترى هناك أبداً تصور هذا وتعلم فيه جيداً .
هل صلتنا ، ولدت له إنيك أول من ستقطع رقبته أو يوسط على يغب زويلة ،
ألا تخاف . . ؟ فقال لنا حزين وهو رجفة ، قلت هذا لن يمنع وأشرت يدي

وعزمت بعينى ، سألت فجأة . كم سأبقى في الحبس ؟ أطرفت لحظة ثم
قلت له أجب أن تعرف ! لم يرد . قلت . . إذا قدر لربيتك ألا تقطع أو
جسمك إلا يوسط ، فربما تقضى علينا تسعين عاماً إذا لم يردك أن تعيش هذه
لحظة وربما سنة ، وربما عشرين ، لن تخرج إلا إذا أمر السلطان بذلك ، وانت
عن موصول أمرك إلى مولانا ! هل تعرف والى القاهرة أو أميراً كبيراً حتى يشفعا
لك عنده ؟ رليت الحروف يمتدني حينه . قلت لنفى هذا واحد لا يعرف
ما ينتظره . فلأكل له ولا تمن ما يدور على وجهه ولا نحن ما في نفسه . وما هم
بقية الزعر مصفين كان على رؤوسهم الطير . قلت هذا إذا لم تمت مطعونا
« فلاحون » أو « بعض القوطاط نمك . . . » وأعلم أن القوطاط في القشرة
كالرجل والمقرب كالجل . أما إذا شعرت أننا بالملل في أى ليلة فربما جئت بك
عندى لأعريك وأقطع لك « كلام فاحش أثرت حلقه » وأعلم أننا لو فعلنا
ما نريد بك . تصور . أى شيء يخطر لنا ، فلن يتكلم أحد ، ولن يرفع رجل
سبابة لحدنا . ولن تقول عليك امرأاً أو تنزع عليك زوجة ، قلت لنفى
إني أعرف لهذا ما يجري الآن في حلقه وصدوره ، فلا بدت فيه ما قد يسقطه
منه . سلطتنا نفسه لا يملك أن يفعل مثلاً أفضل . هل يستطيع أن يقول
ما نقول لأى من الحمليس في السلطنة ؟ حسن الفلاح المجوز ، والله يا أمير
ما فعلنا شيئاً . . خسرنا سجان كبير على وجهه ونزل الصمت فوق الجميع
ككلمة .

وكان القمر ينسحب على حائط السيل غموراً مثيراً الوجه ، انقربت من
الشباب مرعى الكثرين . طبعاً أنت لا تعرف كل ما عندنا من ألوان
الطلاب ، والويل لك لو أشر واحد من أصحابك عليك ولحال إنيك تجوز مبلغاً
من ثلث حتى لو عشرة دناتير . . . تكلم وتخوذي وتمصر أطرافك وأصدافك
وتخلع أسنثك وتنفق في فروة رأسك أو نخلع أبزازك ونشويها ونطعمها لك .
لاحت أن ثياب حينه قد اعتز ، وشفته ترنجان . . . كربت وجهي من
وجهه كذا لثقي أن يلاسن أفتد ، وضجته زحقت عليه زحقة عظيمة فراجع إلى
الوراء متعشراً ، فلتطقت فككبه في صدره لكياً حيناً طرياً لكنني أعرف لماذا
ما يخلعه من كثر . وصمت حيناً إلى ولهاهم أنه لن يرى أنه أبداً . . أبداً . .

ولن يسمع نداء زوجته إذ يرجع من الضبط . وفي الحب سبى ملاح فولاد
وأسماع . . قلت لهم كلهم وأنا أعتدل في وقتي . . لن تعثر شبهة لكم حل
أثر .

صحت على سجان كبير فرجع حصاه . وتلفظوا فوق السلم الخشبي
الضيق وهم يقولون كائنات . . وكلنا لوصلوا في البعد إلى أسفل . . ماتت
صراخاتهم . وفي الطليان السفل سيحاول رجال ربما عظمى عليهم ستون أو
سجون مئة أن يعرفوا القادمين من العالم الذي باتوا يجهلون . ذات ليلة عندما
نزلت بغضى لأضع الأمير أقبلي الطويل في الحبس . سمعت رجلاً يزعم من
مكان مظلم مودنا به يسأل عما إذا كان يوجد عالم حقيقة أم لا . وآخر يسأل
عن أحوال الناس ومن أي جنس جاء القادم الجديد . . . وتلاحق الأصوات
حتى كاد أقبلي الطويل أن يموت رجلاً حل نفسه . . لكنه لم يمت . استندت حل
السور الجبر بذراعي ورأيت المدينة عليها حنة . . وكانت الليلة وسط بين
الحريف والشتاء . رجلاً كليل نحى . الأسطر وبمطل حتى توصل الأسواق ونسي
المقشرة مكثاً مهولاً مفزحاً . تبعت إلى أين لم أصل المشاة فاستغرقت ربي .
ومشيت إلى طرفي . خلق سجان كبير وأخبرني أن السلطان سيأمر بعرض
هؤلاء الجيوس ربما بعد أسبوعين أو ثلاثة . لم أزد وطلبت منه مسجحة الصلاة .

• • •

فردة

قال ابن سيدة . .

السجن هو الحبس . والسجان هو صاحب السجن . ورجل مسجون يعني
مسجون . . وقال رحمه الله أيضاً رحمه يحبه حبسا جهنم محروس وحيس
واحبه وجهه يعني لمسكه عن وجهه ومنع حركه وحقن جراته وروحته .

• • •

رب يسر وأعن

من ليلتي لوقتي الشيخ مسعود عند حلقى بعد أن تركت بيتي قائل ألا تخلف
الله يوم القيامة . قلت أسمع به وإني ألتجأ . هل رأيته فاسقاً أو مقصراً في
الفرضة أو أبلغك عن الزمر أي جندفت في حق ربي . لا والله يا شيخ
مسعود . قال لا هذا ولا ذلك . لكني أسمع أنك تلتقي للعائيس صوناً من
الطلاب وأنت تجمع الكثيرين في موضع يضيق عنهم غير متعنتين من الوضوء
والصلاة وقد يرى بعضهم عورة الآخر . قلت كل عمل وله سوءاته وميزاته
يا سيدنا . وأعلم أن كل ما بلغك كذب من أوله إلى آخره . قال لا حول
ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . طلبت منه أن يدعولي بالمقبرة . قال اللهم
أحبب عنا بلاءك وشرك فضيت ونسي منه . كأنه يظنني أمراً لبرج القلعة
وخزائن شياكل وسجن القهلم أيضاً والعرقانة . وما غلبني لنا . . . هل أنا الذي
لمتحدث الجيوس ! ليس أمير المؤمنين زائل الخلقه هو الذي ابتدع الحبس في
الإسلام ؟؟ وابتاع دلو في مكة يضع فيها ما يري أنه يستحق أن يوضع
ويوثق . والله ليس غريباً أن نحى إلى المقبرة يوماً ما يا شيخ مسعود . . .
عندما أمتشي في السوق والناس حولي يتدافعون في اتجاه سوق الليمون . وباحة
يصبحون . وعلبان يمشون . . نهاية النهار وبداية الليل . . تزيد الحركة ويكثر
البيع والشراء وحيمة بمل الحذاء والسكون . . كان العالم مات عندما أمر لي
هذا الطريق يتورب خاطر . . لا بد أن جميع هؤلاء سيجهنون إلى المقبرة
ويصبحون تحت الأرض . . . ليسوا مرة واحدة . لكن كل منهم له دور . . كل
عليه حنة لا بد أن يخشيها لو يظني . . طلعت إلى سجون وأنا من الضيق في
أمر عظيم . . طلبت إحضار الأمير منلباي الذي غامر على السلطان وركب
جميع السلطان حسن وحاول أن يتبع بعرض السلطان وسطو عليه . . كان
ناحية . . لا يمرز ملوك أو واحد من فولاد الناس أو العوام أن يمتزى
سيله . . والله لأقتلن به وأجعله .

(. . . عتا أصاب الورقة تلف جعل الأحداث تتوقف . غير أن ما يلي هذا
لا يعد الأحداث كثيراً عن سياتها الطبيعي) .

.. ولا أفرى إلى أين ؟ وصمت أن تسأل سفيى والمطح برأس كل من
 يقابلنى . غير أن القصبة عظمى فهدأت روى . الأمر لا يد أن يبر فى
 حله . لو شاع والضح لاحتزت رأسى . أى أهام سوطه فى انتظارى ؟ كل
 سوز السلطان حل بكلمة . لما أكتيك المسكر تده قسوف يركضى غرق يخل
 بالقلوب ويحرسى فى القاهرة كلها . . . لإجوهه ، إضربوه ، طوب ولدى ، فقل
 رجل قطع ذراعى ، خوزلى ، أدخل عنبره للحسن فى . . . رملى ثلاثين عاماً
 كاملة لأنه طمع فى امرأى فحبسى ليعزلوه الجور وينالها . . . الفاسق . . . الفزق
 يا رب الطف . يلرب أم . . . يلعطنى السرة والعامة . . . ويصيح المنادى أمام
 الركب . . . هذا جزاء من لا يتحفظ حل حبوس السلطنة ولدى حبوس حرمت
 يا غروب هادى أربعون فلاحاً لو قتل منهم فى الطريق لما ارفع أصبع
 ولا احتزت شفة ، جمعت السجاة ، طحت فمهم فرباً وركلاً ووليت أهداهم
 تكاد أن تتخلع حول رجبهم ، صرخت عليهم أعرعون أى حول يتفرقم ؟
 أنتم أفرى الناس بالمشرة ، سئلوه مكناً بعد المال منكم ، غير أن بعد وقت
 جمعهم . لو المضح الأمر لو ذاع الخبر ، لقتلتكم أجمين ، وحللت بدى أسلم
 صبرى ولنت من الله ألا يرسل السلطان فى طلب الرمال القسطن
 ليرضهم ، وخرجت إلى الطريق طائشاً حل وجهى ، وللى جرة نار ،
 أقبل رجال يربعون يبارق حمراء ويلتون الطبول ، يتقدمهم رجل حول وسطه
 قباض أحر يدور حوله بسرعة كبيرة ، والرجل يلف ولا يدوخ ولا يلع ، وكثروا
 يزحفون فى حاس . . . الله . . . الله . . . فلهت حتى مروا وكان للذهب يقترب ،
 وحيا قليل ينزل الليل فجأة ، حب الهواء باردا حتى ونز عطاسى ، توقفت
 حائراً والطريق تزداد به الحركة والعلو ، تذكرت عيال وامرأى فى البيت ، فثبتت
 أن أمتلى جوادا يلقى بى ولا يتوقف لكتهم ميفركون ، حرمت فيما للعمل ،
 وصحت بنضى . . . الثبات . . . الثبات . . . نزلت ثلاث درجات نزلت إلى
 جامع قديم منخفض ، وكان الهواء طريداً وقت خائفاً وتذكرت صندهم . . .
 أربعون فلاحاً . . . والأمر . . .



سبحتك أى نيت إليك ولما أول للزمتين . . . اللهم أطف عنا وبختر لنا ،
 اللهم لا تشمت بى الأعداء ولا تهملى مع القوم المفلولين أرجو رحمتك بقولك .
 إن الله يحب المتوكلين ويحب المتطهرين . فترىنا كثيرة ، وطاعتنا يسيرة ، كلنا
 تحت الزلة والتقصير ، يلرب لولا غيب اللئب لما ظهرت صفة علو الكرم ،
 ولولا تقصير القصر لما بان خرفان وحلم الخليم ، اللهم أنى أعود واستجير
 بحييت ظلى نزل فى حقه (وما أرميك إلا راحة للعالمين) . . .



باب أسر وأمن ..

سألت سجعاً كبيراً ، هل راكم الأهل ؟ هل زحق عليكم الهالك ؟ فقال
 لا صغير ولا كبير لمس بنا ، ظلاليك لا يتزلون من القلعة بعد اللئب ، وورث
 الولد لا يجولون فى الطرقات إلا بعد نوبل قليل . . . ثم من نحن ؟ ألسنا جند
 السلطان ؟ يسلم كل منا يعرف أهالى البلدة أجمعون . . . وفوقنا لجمعت غيوم
 قتلة نالت بحملها السهات ومالت حتى تكاد أن تلامس الموت . . . زحق أولهم
 عندما طلعنى . . . ماذا فعلت يا أمير ؟ صعدت بالسوط حل وجهه . . . وفطنت
 فى اليوم المستطيل الأحر المظلم . الذى لتضيق مكان الضربة . . . صرخ
 أسطهم كائنات . . . يا غروب بلى وحياى وقال أعرعون إنهم ما جنوا شيئاً
 ويلعللون عليه وإن واحداً منهم لم يمشى خلوقاً ولم يشوش حل إنسان . . . وقال
 بعضهم إنهم أكثر أهل مصر طاعة لكل ما قيل وما سيقال . . . لماذا فعلناه حتى
 انحطوا علينا فجأة ونحن نبيع التليمون فى السوق ونأخذوا جالنا وأحائنا واشكونا
 لى القيد الخديد ؟ قلوا إنهم خلافة ؟ وإن أهليهم سيمولون حزناً عليهم ،
 لأنهم راحوا مصر ولم يعودوا ، أنالى عشرة أولاد يا سيدنا ، أما أنا فقد وضعت
 حين فى قبة التليمون التى حشيتها قرق عتلى لأبيها فى السوق ، رحمت أمتنى
 إلى ما يفرقونه ، وثمة برد وسلام ينزل حل ظلى ، لم أتكلم ، الفلاحون الذى
 أن هم المذودون لم يكونوا كهؤلاء فى الزعيق والصراخ اللعين لكن هذا بطبيعة
 الحال ، الأعرعون جاملوا من قرأهم مباشرة ، أما لوأنتك فما الحرب حالهم ،
 رجل يخرج من بلسه ولا يرجع ، ولن تعرف لمرته ولا عيال ما جرى له ،

وبعد أنهم يطلب السلطان عرض العريان القسدين لتصبين في الأرض الذين
أسرهم الأمير الكبير ، فتضرب أحنق البحر ويوسط الآخرون وتتم
أجسامهم الخفيفة من باب زويلة وباب الشجرة ، وقد يتن الواحد منهم
ليجفف لحمه ولا يجد من يلفته حتى يتصلق عليه مؤمن فيدفعه ، ولن تستطيع في
ذلك شاكلاً ، وروح كل منهم حل أمره ويظهر مكانه وتنتهي خبره ، قلت لهم
وكلهم مصفون كأن الصور قد تلخ فيه التلخ الأول فخرت الأوتل
جميعها .. أستم من العريان القسدين ومها زعتم ولقم غير هذا فكم
كظمون الطرق ومهاجون ركب الحج ، مستولون نحن لهم ليسون ، نزرع
ونبعم ، لكن لن يسمعكم أحد ، رحت أنور حولهم لكل جعوظ صوبهم
وملاهم المرمية والرجاء المخلوط بالهأس فوق الوجوه ، حباً أله الرؤوس
كلها ستعنى بالقش بعد قليل ، لوتش جلدى وطف بدعافى خاطر طرقة
بعداً واستعدت من الشيطان الرجيم ، اليوم القتل جبل بالطر ومها قليل
ينزل السيل كالبحار ، صرخاتهم تطلع إلى الفضاء الواسع حتى لو سمعتم
الدنيا كلها فمن يسأل أمر المقترة ؟ ترأبمت إلى الرود خطرة وزعقت حل
سجلان كبير أن يرمهم في الطباق الأوسط وأن يربط كلا منهم إلى الجدار بثلاثة
مرباط حديد ، قبل أن ينزل إليهم سلكه كم عددهم ؟ ظلال إثنان وأربعون ،
للت له وكم كان أمرى الأمير ، قال أربعون ، أطرقت مقدار درجة وطلت له
إوسل إلى إثنين ، خلعت خنجرى من جرابه وروق نعله في الهواء .

• • •

هكذا تنتهي أوراق المخطوط فجأة وأكاد أكون متيقناً أن هناك أجزاء مفقودة
منه ، كل ما أرجوه ألا تكون يد القاء قد استلمت إليها فأثبت عليها . لذا أرجو
من حوله ودعوى المخطوطات القديمة إذا ما حلروا حل الأجزاء للكلمة لتلك
الاحداث الغريبة أن يتكروا بأرسافا إلى .. حتى أنشرها ويمكن الاستفادة
مها .

• • •

كشف الثام عن أخبار ابن سلام

يلوب يا سائر المؤمنين من الميوب .. يا كاشف الضيوب .. يا من ارشدت
قوماً من دون الخلق إليك . ثم وقتهم للاعتقاد في كل أمر عليك .. اللهم
صل وسلم على نبيك سيد البشر .. كاشف الحقيقة وحامي المصدق العالم
فوق البحور الخفية .. وبعد ، أعلم أن سطرت هذه السطور .. لا شيء
إلا ابتغاء مرضاة ربي .. وكشفاً لحقيقة إنسان عرفت أخباره عن قرب . فليس
ما لم يقله الأولون .. وذلك مرأً ومهاجياً لم يذقه الآخرون . ولأماننا
تصاريت حوله التاريخ . فثمة من ينسب إليه سوى المفعال . وآخر يعمل
سيرته بما لم يمر ولم يحدث وزعم آخرون أنه وهم لم يوجد . ومن يعلم ؟ ربما
جاء في قادم المصور من يرغب في معرفة طرف من أخباره . فيكون حديثي
هذا هادياً ومرشداً .

• • •

ذكر أصله ونسبه .

عن الفقيه إلى ربه . يوسف بن إبراهيم بن سلام ، لا يعرف أبعد من جده
الثالث ، وإنما سلكه لأجلاب ، أنا يوسف أبي إبراهيم وحلى سلام ، وكنتي

ابن سلام ، فلا تتأخر إلا بهذا ، كما أنه لم يزل لأحد من ولد بلخبط ولا ابن ، يقول إنه سمع أحد تفرق تاريخ مولده بحسب الوفاء العظيم الذي مات فيه أبوه ، غير أنه كان بطرق ثم يقول ، لكن أي اثنين لم تحمل من الوفاء ، واشتاع عساكر العثمانية بين العدة أنه غريب عن مصر ، قلوا إنه يطعم في ثروات الجراكسة ، بل أن السبب في مروره بالطرقات متوقفا بين لحظة وأخرى زاعقاً بأهل صوته عما جرى في النهار من جند ابن عثمان . إنه كان يقهم في عشة غديمة على باب حارة حرب الرصاص وعندما شرع العسكر لإزالة أبواب الخانات قوضوا عشته . ابن سلام بلا ملوى لم يخط وطش في الطرقات . ويكادون أنه ليس من أهل مصر . وإلا فلن كان وقت خروج التجاريد لا ولا فلان كان وقت أن حلق طرمته على باب زويلة . وإلا فلن كان للعوام الذين يمشون دائماً وراءه ، يرددون ما يقوله . يمشون به إذ ينام . لهذا لم يمت إذا كان يمشي ما جرى لا باليوم . لا نعتوه فهو دجال .

• • •

حاشية

أعبرني من أتى به : أن بعض السواة دخلوا عة عطر العثمانية عندما حلوا خطفه . وراح ابن سلام يطلق صوته الغريب الذي لا هو زعيق ولا صراخ ولا حتى بين بين ، تراجموا من حوله وأبتعدوا في كيكبة الزرد والسلاح لا يجرؤون على الاقتراب منه ، وأطلق المنة صحبات التكبير والتهليل

• • •

فصل فيما جرى له عند دخول العثمانية .

... عندما نارت فتنة بن عثمان . وجاءت الرسل من الشام بما جرى . لم يعد الرجال يظفون أبوابهم في حارة حرب الرصاص . كما أن ابن سلام لم يعد يخلق بوابتها بعد الخشب . كل من أهل الحيرة أمام بيت . يجمعون ما يجرى . فالأخبار منطوعة . والقول الذي يبدو مؤكداً . الصباح يصير مكفياً ، ق

المسجد . كل هذا والناس في كوشة عتيقة . وابن سلام لا يكرى إلى عشته لهذا . ولما هذه الليلة التي جاء فيها وجعل تخط ببطنه من الشرية وراح يمشي ما جرى ، يقترب من ابن سلام ويبدأ أن ظهره للحرم قد أزداد اتعنه . ابن عثمان يمشي الأمان ويدخل بليس . رجاله يطحنون السيف في أعلاها حتى قيل أنه قتل فوق العشرة آلاف إنسان من حريان وجند وفلاحين صلات يمشي مرمية في الطرقات . أما الأحياء منهم فنقطهم العثمانية وبأحدهم بأبيض الأمان حتى إن الفكر الذي لم تقص بيت بثلاثة دراهم . هنا زعن ابن سلام متسللاً من الثمن الذي يمت به الفكر ؟ ثم سلك من عند القتل . وأخاف الرجل أن سطر البلاد التي مر بها ابن عثمان كانت تملأ من سكانها حتى إنك لتدخل القرية وتكفي فلا تصطفك إنسان . تحسر الرجال . واستمعة ابن سلام يره . . . سمعه الرجال يقول : والله لم يجر هذا لمصر من قديم الزمان . إلا زمن المختصر البليل . أصغروا وكان عليهم الطيرة . ماذا يقول صبور الحارة ؟ ومن هو المختصر البليل ؟ لم يكره قوله . راحت أسئلة الناس كسجارة وموها في بر بلا قوله . بل أدركوا لها المرأ الأولى التي يسمعون فيها المعجوز . طوالت سنين لم يخلق عشته . لم يدخل بيتاً ولم يعبر حتى أسوار المدينة . . . منذ هذه الليلة لاحظوا أنه يخرج كل عام . رؤى في أطراف القاهرة وعند صحراء الوصلة . وقال آخرون والله أعلم أنهم شاهدوه في ميدان الريدانية . بل إن هناك من أقسم أنه رآه عند سيل علان ، يمشي ليخند ويحمل معهم الأثربة . . . وفي اليوم السابق لدخول المختكر مدينة القاهرة وجع إلى عشته مشغوراً مشهوراً بمزق الثياب . يبرز العظم . . . حتى ظن من رآه أن الصغار وموه بالحجارة . أما الحولة فنزل فوقها الخراب . وذبح الأختاء من أهلها نعيمهم وفضتهم وقلبتهم على الأماكن للجهولة . ولما من يخلق على نفسه وحل حربه وحمل إلى اللزات البعيدة وفلسق المرق . وإن لم يضع هذا لها بعد . وما لن ثبوا أنهم يرون ابن سلام أول مرة في حياتهم . . . حينه الثقلان دبت لهما الحيلة زحيفة في جوف الليل . بلرب : وتبها إلى أنه لا يتم أبداً . حتى حاروا لها جرى له وما أصبح عليه . وفي الصباح سلكوا عته . وجدوا عته غريبة . تذكر لبعض أنهم رأوه يمشي الضمير في المسجد القريب . وطلع النهار وراحت

الرجل في الطرقات . وفجأة علا صرخ المرقعة . وكانت الكلبة . وحول
الترال والقتل والطمان . ورجفة الأرض إذ تطلق للكبار الكبار بقلوده .
واتخذ الدمار مساجلات كريمة في سماء المدينة . وبعث البيوت بيمة .
والدكاكين مرحوشة تنادي .. الأمان .. الأمان .. والحوازي كالكافين في
المجاعة . كل هذا والثناء يحمل حيله . ونظر الأهل من خلف الطيفان
للخلفة . والعصر يرمى في الشوارع وحشة وحشة . والحرق الضوس أم
وخذة . ما هم جند الحنكار يطافون فيندق الرصاص في الهواء . يصرخون
كالبهائم .. ضج بلا نظام . ما هم يتوقفون بلجون البيوت حجبهم البحث
عن المياك الجراكسة . وعلا صرخ الحريم والآم العيال واستمر القرب والقتل
عدلاً حتى بعد مجيء الغروب والشمس ليس لها من أثر .. ولثانين في
الطرقات ، إذعوا بالنصر للحنكار سليم بن حثان . لا يقى أحد منكم
جركساً ولا .. ومن ناحية سبل علان .. ولحق قناطر السباع . عجل للناس
أهم يسمعون صوتاً يلوك كلاماً آخر . صجوز على الظهور . يدوي في حمة
الغيب .. ينكر . حل فرح شجراً ، يلقى بمرحة كانه يجرى . منزل لا يفت
راح الصالح بالطلع ولعب السيف في رقاب الأبرياء .. طرش العشائية من
أهل مصر في يوم واحد ألق ألق كلف إسلان .. الجثث مرمية فيها
الفرسان .. لا تجد من يذبحها .. أهلك بلا وؤوس وؤوس بلا أبلان ..
يا حي يا قيوم يا من لك الدرام راح الصالح بالطلع .. قيل إن الصوت
سمع في الباطنية . بل إن أهالي الجرافة استطاعوا فهم ما قاله الصوت . ولما
سأله تفصيل للمكانين من بعضهما وحاوروا فومن يكون ومن يمرز على التجول
والزحف وسط هذا الضجيج والمجيج قالوا إنه جلوب .. ولعل أنه رجل كل
ولده في المرقعة وفكر آخرون أنه إسلان فخر به ليزن حول ما روى . وأقسم
ثلاثة ممن كانوا يجتنبون في شفق الليل قرب ضريح الإمام الشافعي ..
ما هو إلا صجوز معروف لأهل قصر الشوق حلة وساكين قرب الرصاص
خاصة .. إنه معروف لدينا من صغرنا نراه . الشيخ العابد الزاهد ابن
سلام .. وأكد شاب أنه اصطدم به أثناء جريه فرجاً . اقتبلت جسمه عتقت
وحشة . وأقسم بترية أبيه أنه روى ثم ابن سلام غالياً غلباً من الأسفل . فراح

مظلم يظفر صاعاً غير أن أهمل القرب كالبوا ما سمعوه . صميج ابن سلام
صجوز لكن أستاذة سليمة . وقال آخرون إن فيه لم يكن به إسلان . غير أنهم
تصحبوا كيف يتقشرون والموت يمشي حل القنصه في الطرقات لا يامن أحد حل
روحه . الحراق تشتعل في عدة أماكن . غير أنهم فجأة سمعوا صوتاً واضحاً
أقتر الرقعة في الحريم . أعطهم حتى كانوا يكون . لا عيب للناس في أسى
وهم عظيم ويجرحهم طوى مقترح لا يزال يترق .. الصوت متوحش
وعريب . ضاع الأمان .. وراح من راح . هتكوا عرض عشر نساء في جامع
للزيد . وقطوا بائع خيل عند باب النصر . أكلوا خيلهم .. القتل والهب
هنا .. راح من راح .. أثلوا من الطيفان التي غلفت من وقت بعيد .
صاحب الصوت مضى . صميج من يردد ما قاله .. سألو بعضهم فأكذ رجل
رأى الثاني بعينه .. هو بعينه . زاهدنا وظهيرنا .. أ



ذكر أخبار شهر:

اعلم خضر الله لك أن ابن سلام لم يفرض الشعر طوال عمره لم يتركها قبل
حتى وفيت الشامة العظمى . وحملت الكارثة . وحشت الفارعة . وصال جند
ابن حثان وجالوا وهائوا على نفس مصر . وما راحوا لجوامعها ولا لزوعها
ولا لتساقط حمة .. وهبوا ذكائنها وقصورها وما أبطوا إلا الجبلان ، يذكر
الناس . إن ابن سلام بدأ عتلة يقول الشعر . ولد أشاع العشائية أن
الجراكسة كانوا ينظمون له هذا الشعر ليقوله في الطرقات .. لكن أصبر من
أقر به من أن ابن سلام هو الذي غرض كل ما قاله من شعر .. ثم إن شعره
الذي ليكن الناس وأجرى النبع أهلها من العيون ، لم يبق منه شيء . ولو
كان واحد من الخلق كتبه له لبقى منه بعض ما كنا نود أن نرويه هنا . يقول
القاضي بدر الدين بن زبون - نعمنا الله به أمين - إن إلقاء ابن سلام لإحدى
تصانيفه استغرق مرة وثلاثاً بنحصر بين آذان العصر وبزول صفرة الغيب . وهذا
من غريب الزمان .



اقتضى ابن سلام الطريق الكبير القريب من السوق . يحيط به من احتكروا
الشيء ورأه ، وسامع التجار والناس والعمال حيا بنويه ابن سلام ، وفوق
البيوت تجتمعت الغيوم الثقيل . . . ولا عجب فقد اضطرت السياه طويلا ثلاثة
ايام . ولم يكف الرعد في الليل أو النهار كذا البرق ، حتى لوحشت الأرض
وصار للشيء صعباً ، ويقسم من كانوا على مقربة من ابن سلام أنه لم يرتجف من
البرد أبداً ، كما أن ثيابه لم تيلها نقطة منه . وضجة وقيل الظهيرة ، علا دق
الكوسات والطبلخانات وزحف الخيز من بعيد ، وبدأ من نهاية الطريق متولى
حلبة القاهرة قادماً من ناحية الرملة حيث القلعة ، يهني إمام السجدة ، له
هبة ومهابة تكفه تحاكى هبة الملوك ، قام ابن سلام زاحداً . . متوسطاً الطريق
يا حي يا يوم وتردد البصيص مقدار درجة في الإضاءة به ، غير أنهم قد أحاطوا
به ، وأطل الأهل من الطيفان ، وطل النداء على سائر أنواع البضاعة ، كتبت
للطويل ، سكنت الكوسات . . زحف ابن سلام زحفاً عظيماً ، أقول وقد
عانت ذلك بنفسى ، إن قلب الوائف حل بعد ألف متر من لاهد أنه ارتجف
هولاً وذهبة ، تقدم من حصان المحب ، أنزل يا زنى من فوق سرجك
وكلمنى ، وحل مهل نزل الزنى يمتد في قطبته الحزير ورجبه ، صاع عليه ابن
سلام ، ظلمت العباد وفرضت من الضرائب ما لا يطيقون ، شرحت العمال ،
وزدت عند الأراذل وإلى هذه اللحظة تصليح الواقفون وراء ابن سلام ،
ومعظمهم فلاخون جاءوا من أقاليم البلاد بعد أن سمعوا به ، والأخرون
حالت يوم للصلاب فلزموا جانب ، وأطرق الزنى برأسه ، يا زنى ألم تكن أنت
الرجل القريب عند السلطان الشهيد قصصة القزوى ! وكنت تقبل يده وطرف
جبهته في اليوم مرات ! ما الذى جرى يا هالم ! ما الذى فعلته ! وقمت به حتى
نراك اليوم الحبيب القريب لابن حيان ؟ ألم تدعو أنت على اختكاري قبل خروج
القزوى إلى الشام ؟ ألم تشرف على جمع القزوى والضرائب ؟ وما لي بك اليوم
نصيراً لأهلك عند المنيابة . ما أنت مستتر في فرس الكومن وثريتنا من الظلم
أنواعاً وأنواعاً . قبل أن الزنى صار ينفث حوله مذموراً . . انتابته رجفة .

وما سمع الكلام من ينفثه في اتولى ملك الأمراء ، يا غروب دياره . . لن
يخفى القرب إلا وشك في الزناجير ومنهم اليوم الثالث . يشك من خلوصه
كالبغايا . . كل هذا وابن سلام لا يكف ولا يهدأ . . أنت كنت معهم
عندما هجموا على سكان الجزيرة الوسطى ، قذفوا في بيوتهم ودعوا
هفتهم في الطرقات وشرروهم حتى انتطلع صبحهم . كل هذا وأنت معهم .
لا تقول إسكروا ولا ترفع عنهم الأذى ، كل هؤلاء شاعروك وسمعوك
واستأثروا بك ، لكك لم تلب لهم يوم يا كفا . يا حي يا الله . انظرت
عروك . . وكذا الدم يخرج من عينيه . لما الناس خلفه فصاروا يصرخون
ويستغيثون ، رجفة مد ابن سلام يده ويطلب الزنى بركات ابن موسى من
لميته ، وطلع عياته ، ورمها في الوصل ، ويبدل آخر يبدله ، وهذا لم يظن
في قديم الزمان لو حدثه أن ناسكاً أو غير ناسك مرمع هبة رجل فنى سطوا
وجمروت خاصة كالزنى بركات ابن موسى ، فقد ظل نجسه يلعب وسعده يطلع
في زمن القزوى وزمن الاختكار ، بما حير العقول وأربك الألباب ، وقيل أن
الزنى وجد ابن سلام أن يكلم ملك الأمراء في أمر هذا الحزب ، غير أن ابن
سلام لم يصغ إليه ، وبزهد عدم العادة فجاءه حتى أنك لو نثرت ذرات الملح
لوقهم لما غفلت قوة واحدة ، وأرعدت السياه فجاءه رعداً مهولاً حتى وجعت
لقرب الناس بما لهم عسكرو المنيابة الذين تجمعوا من قرب ، وتنافس العامة
وسائر أهل مصر ، أن البارى عز وجل غاضب على ما نزل بهجته ، انتابت
القلوب رجفة وذهبة ، ودفع ابن سلام عصاه مسكاً بها من مصنفها . زحف
ناهما على من مات . مملحا من راعهم فقلوا منذ دخول المنيابة ، وأيا أهل
مصر الذين اتكروهم من وسط عياهم وأرسلوهم إلى بلاد الاختكار ، حتى
حدثت الفرجة التي حريت ، وإيوانات الجوامع الجبيلة التي بيت حواميدها
واسحقوها . وعندما استفرسل كاد القوم يشقون ثيابهم ، كبروا وهملوا ،
وانطلقت لهم جرة ناز مهولة تليد ولا تنطق . . سكوا الزنى ورجاله بالمقارع
وبرغم زيادة اللون وشدة الضجيج ، فقد سمع جميع أهل المدينة صوت ابن
سلام تيقاً كالزئيق ، صائفاً كالبطلور برغم تقدم العمر ، وزيادة الهمة ، وشدة
الضيق ، والكرب .

ذكر أخباره الأخيرة وكيف انتهى أمره .

طلب للشاعلية ثلاثة أيام . واثنين وراجلين . يتأخرون : بأن الكاذب القوم مدعى الزهد والميلحة . سوف تلق رأسه بالطير عند باب زويلة ظهر يوم الجمعة . وليلة أيام ثلاثة علا النواح من البيوت . ويرغم أن الرمال قد حرم النعم بالندق على الطلوات . خير أن النساء تحت ستر الليل رحمن يحنن ويضربن على الطلوات حتى الفجر . لدرجة أن المدينة بأخطاها الحول حتى ليشب من حالها الرضيع . ولم يجرؤ دوكي واحد أن يلمر بالنس من هذا . وقيل أن الجنود الذين أسكوا ابن سلام وضربوه . قد اتلهم النعم . لأن الشاك لا يهرون . فزمو أنفسهم من فوق سور القلعة . وراح عطف الفضول من العامة يقولون إن ابن سلام حارب عالم على وجهه في الجبال . وأن الله سبحانه وتعالى سيمده بجند من عنده . وأنهم لم يسكوه هو بعينه . لكن جده ظهر الجمعة حيث غلت الجوامع من مصليها . وخرجت النساء حاسرات . أما نوافذ جامع الأزهر شيخ . فقد تعلق الحلق بها ليقرئوا البوابة الكتبية وما يجرى عندها . وعند ظهور الجبل المرتبط إليه المعجوز . سرت مهمة بين الجمع ونحرت فجأة . النسوة لم يظفرن زهراً مرتفعاً . ونزل الخراب والموت حتى لتحصه فوق البيوت . وكذلك الحال مطنن الأزهر فوق زويلة ليلا حزنًا وقهراً . وعطف ابن سلام سحبا جعاً يبلغ العشرين . قيل إنهم الذين هبت يومهم في الجزيرة الوسطى . وشكوا إلى ابن سلام حالهم . وكان ما كان

طلع ابن سلام فوق المصطبة . رأسه علقق قما . جسده عثر إلا من زنت قديم يهبط نصفه الأسفل . جال بعينه في الجمع الذي احتشد وسكن . صاح فجأة . أقرأوا الفاتحة . اهتزت الشفاه وترقرق الدمع عطف المالك . وقيل إنه التفت إلى الشاعلي وقال : أصل شغللك . وجلس الرضا . بينا رفع المشاعلي الطير الثقيل وأهوى به فوق عظام الرأس التي انخفض وبدا كربة خربة في حجم قبضة اليد فوق الرقبة . انفض الجسم إلى أصل وقيل ظل واقفاً مقدار درجات وسرعة هوى الطير مرة ثانية . وزعن الواقفون جميعاً زعقة

هائلة . وكثر التحسر والأسى . وقيل إن أحجار البيوت رمت دماً ولا تزال . وحملت النساء عينا مهولا . لوحت له القاعرة . وقيل جسده معلقاً فوق بوابة زويلة ثلاثة أيام .

www.liilas.com
منتديات ليلاس

مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم التوزيع عام الترتيب ١٩٧١ / ١٩٧٨

LS.B.N 977 - 01 - 5775 - 9

Florist

وما زال نهر العطاء يتدفق. تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وأرواحهم خيلاً بعد جيل. ومازلنا ندشمت بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة في كل بيت.

شجنت التجربة المصرية والقراءة للجميع عن الطوق ودخلت مكتبة الأسرة عاصها الطلسم بشع نورها أضاء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب في شتات الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتمسكها هيئة اليونسكو تجزية وثالثة نصفي في كل العالم الثالث. ومازلت أحلم بالزهد من لأكرم الإبداع الفكري والأدبي والعلمي لترسخ في وجدان أهلنا وعشورتي أبناء وطني مصر المبروسة بمصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

مسوزان ميروت



مطابع الهيئة العامة للكتاب

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع